الـمُقنَّع

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخـــراج الفـــني: وفـــاء الســـاطي

فائزة داود

الـمُقنَّع

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة القصص (8)
2012

امرأة النار

احذرها! احذر امرأة خلقت من خطيئة الشيطان.

تحذير أمي من شعيلة لم يكن جديداً ، لكنه غدا في الفترة الأخيرة حازماً ومتشدداً أكثر من أي وقتٍ مضى، وحين سألتها عن سبب تحذيرها المتواصل والشديد اللهجة همهمت بعبارة فهمت منها أنني صرت رجلاً ، ولكي تؤكد فكرتها أشارت إلى لحيتي التي غطت خدي، وخشونة صوتي، و مبالغتي غير المعتادة في العناية بنفسي، .

هززت رأسي مؤكداً لها أنني سأطيعها ، وسأغمض عيني حين ألمح خيال امرأة النار ، وسأصم أذني حين أسمع همسها ، وسأتوقف عن رش العطر على جسدي ولن أكوي ثيابي بعد اليوم وسأمتنع عن تسريح شعري ولن

أضع عليه المثبت الذي تكرهه أمي. لكن هذا كله لم ينفع لأن أمي تريد تأكيداً أكثر ضماناً فتقول: احلف، احلف برأس جدك الميت بأنك لن تستجيب لإغوائها، ولن تلحق بها إلى الغابة حيث تكون مع عشاقها فيما زوجها الطيب يقطع الحطب.

أحلف لأمي برأس جدي الميت بأنني لن أدخل الغابة ولن أحيد عن الطريق التي اعتدت السير عليها أبداً. بعد ذلك أحمل كتبي وأتجه إلى المدرسة الثانوية متحاشياً الالتفات يميناً أو شمالاً لأن أمي قالت: شعيلة لا تمشي على الطريق التي يسير عليها الشرفاء، درب شعيلة ليست ككل الدروب، وتضيف: شعيلة تحرق كل من ينظر إليها، وقالوا: في العام الماضي أحرقت كل مكادس القرية، أعوذ بالله! شعيلة تحرق كل من تلمسه.

كنت تلميذاً مجداً وكان أبي فلاحاً نشيطاً لم تحرقه شعيلة بنارها، وأقدر أنها لم تجد فيه شيئاً يستحق أن يحرق، كلانا مشغول، أنا أقضي سحابة نهاري في المدرسة وعلى الطريق التي توصلني إليها، وأبي مشغول بحقله وببقرته الصفراء، وعند المساء يعود إلى البيت،

يغسل يديه ووجهه وقدميه، يتناول عشاءه وينام، وبعد دقائق يملأ شخيره الغرفة. طقس أبي أحفظه كما أحفظ دروسي، يقطعه فقط حين تمرض أمي، وفي هذه الحالة يؤجل تنظيف جسده واستبدال ثياب النوم بثياب الحقل إلى حين عودته من الغابة أو من بيت شعيلة. يحمل المشعل ويذهب إلى امرأة النار، وتلحق به أمي على الرغم من مرضها إلى طرف المصطبة لتزوده بنصائح تنقذه من شرور امرأة النار وإغواءاتها الشريرة: لا تقترب منها كثيراً، ادفع لها بالطرف الذي تلتف عليه قطعة القماش، لا تستجب لدعوتها لتناول أي شيء، لا تستمع إلى ضحكتها الرنانة. ثم تدخل أمي الغرفة، وأسمعها تقول: ما الفائدة! وعيناه ستبصران شعرها الناري، وقد لا يستطيع تجاهل نظراتها الشهوانية أو انثناءات جسدها واستدارة ردفها التي يتحدث عنها الرجال بحرقةٍ وحسرة. لكن، يزهر وجه أمي أماناً حين تهمس: وقد تزعجها رائحة العرق المتراكمة على جسده وعفن الزريبة العالق على ثيابه فتأنف من النظر إليه أو حتى لمسه. ويصدق حدس أمي إذ أرى أبي يدخل مسرعاً وبيده قبس يضرم به حطب

الكانون والبابور وقنديل الكاز، ثم يرمي قطعة القماش الملتهبة على الأرض، يدوسها ويسب شعيلة ونارها.

أعترف أن قبس امرأة النار يشغلني ويثير تساؤلاتي، ومنظر أمي وهي تحتضن العصا وتلف على أحد طرفيها قطعة قماشٍ مغمسةٍ بالزيتِ لم يبارحْني، تلك العصا تحمل قبساً يضيء غرفتنا ويطعمنا الحساء ويدفئنا، وكانت أمي تحيرني حين تسبُّ شعيلة وتشتمها.

اعترضتُ مرةً على سبِّ والديَّ لشعيلة وشتمها، وقبل أن أكمل صفعتني أمي على وجهي وقالت: إننا جنس لا يؤمن له حتى لو حلفنا برؤوس أجدادنا، الأحياء منهم والأموات. ربما كانت أمي على حق، فبعد أن اكتملت رجولتي صارت امرأة النار شغلي الشاغل على الرغم من أنني لم أرها، لكنها غدت رفيقة طريقي وسيدة أحلامي، أتخيلها إلى جانبي، ورائي، أمامي، بعيدة عني وقريبة، تغوص في عمق الغابة تنشر الدفء في أدغالها، تعطرها من أنفاسها الطيبة، وحين تُمطِر السماء تدخل إلى الكهوف، وأتخيلها تعابثني، تداعبني، وأراها في أحلامي امرأةً بقدٍ ممشوقٍ يدثّرهُ ثوبٌ ناري فضفاض

يتطاير فوقه شعر برتقالي يصل حتى كاحليها، وأرى شهوةً تشبه البرق تتقافز من عينيها الجميلتين، وأرى شفتيها القرمزيتين جمرتين تنفثان لهباً نارياً وأرى الرجال والنساء حولها راكعين يرفعون مشاعلهم فتمد يديها إليهم وتشعل من نيران أصابعها الرشيقة قطع القماش المغمسة بالزيت، أراهم ينحنون أمامها شاكرين ثمَّ يحملون عصيهم ويجرون مسرعين إلى غرفهم الباردة يشعلون حطب كوانينهم ويضرمون النار في بوابيرهم ويضيئون قناديلهم، ثم يركعون ويرفعون أيديهم إلى السماء يسبّحون الله ويحمدونه، وأسمعهم يتوسلونه لأجلِّها، لأجلِّ أن يحميها من العتمة والغفلة والغياب. أغفو وأنا مطمئن النفس مرتاح البال فامرأة النار لن تموت ولن تختفي من قريتنا ولن تهمد نارها، كما تتمنى أمي وكل نساء القرية. أما حمدان الكهل فأراه شاباً استطال جسده القزم وصار أعلى من كلِّ الأشجار واتسعت كتفاه الضيقتان حيث وضع عليهما ستة أشجار سنديان وحملها إلى شعيلة الجائعة، رمى لها شجرة، شجرتين، ثلاث، ست، تأججت ارتفعت نيرانها وغطت الغابة ، بعد ذلك تسلل الدفء إلى جسد حمدان المتعب ونام، وبدأت امرأة

النار بإضرام المشاعل الخابية، حتى إذا انتهت المشاعل ونام الجميع لملمت جسدها واستلقت إلى جانب حمدان، غطت جمرها بالرماد ونامت، وعند الفجر يستيقظ حمدان العملاق ويخرج إلى الغابة يقطع الأشجار ويحملها إلى شعيلة، يزيل عنها الدثار الرمادي، يوقظها ويطعمها.

كانت قريتنا سعيدة بين القرى، وكانت ستظل بين القرى أسعدَها لولا ما حدث ذات غروبٍ كانونيٍ بارد، في ذلك الغروب وكنَّا أنا وأخوتي وأبي كعادتنا ننتظر قبس امرأة النار، دخلت أمي بمشعل منطفئ ووجهٍ ترابيٍ باهت، جلست على كرسي صغير، رمت المشعل الخابي ونظرت إلينا جميعاً ثم توقفتْ نظراتها على وجه أبي اليابس وقالت بتشفٍ تخالطه حسرة: شعيلة ليست في بيتها.

في تلك اللحظة ظننت أن أمي تهذي، فما خطر في بالي أن يكون لشعيلة بيت وكانون وبابور وقنديل وفراش، امرأة النار بيتها الغابة وزواريب القرية وساحاتها وبيوتها، أردت أن أسألها إن كانت قد بحثت عنها في الغابة، لكن صوتها الخافت ارتفع ونبرتها الباهتة تلونت لتقول: أخبرني حمدان أنها هربت مع نجم.

اكفهرَ وجهُ أبي وخفقَ قلبي، ولا أدري إنْ كان سؤالي عما تقصده من عبارة: (هربت مع نجم) قد وصلها أو أنني وجهت السؤال أصلاً لأنني سمعتها بعد دقائق تتحدث عن منزلٍ مظلمٍ وباردٍ لا صوتَ فيهِ ولا حركة، وعن كهلٍ يدور في زواريب القرية كالمجنون يعترض طريق العابرين، يحدثهم عن شعيلة الخائنة، الجشعة، الساحرة، ويطلب من الجميع مساعدته للانتقام منها ومن عشيقها السارق.

لم أجرؤ في تلك الليلة على الصراخ، بحثت في الظلام عن فراشي بيدي، وحين وجدتهُ استلقيت عليه، وبينما كنت سارحاً مع شعيلة ونجم سمعت بكاء إخوتي المتقطع وصوت أمي المتشفي ونبرة صوت أبي الباردة وهما يتحدثان عن شعيلة الهاربة مع أحلى شابٍ في قريتنا. في تلك الليلة الباردة وفي ليال لاحقة لم نتناول الحساء ولم نتدفأ على جمر الكانون ولم أقرأ دروسي، ووجدت نفسي أول مرة أحقد على نجمٍ، نجم الذي سرق امرأة النار، وحلَّ حلم آخر، حلم أرى فيه شعيلة بقوامٍ ممشوقٍ يحتضنه نجم ويحتوي ناره دون أن تحرقه، وعلى الطريق أتخيلَهُما

قبسين يهيمان في الغابة، يضيئانها ويدفئانها، وحين تنام القرية يدوران في الزواريب، يطيران فوق البيوت، يرقصان، يتأججان، وأسمع غناءهما يتقاطع مع صوت الريح الباردة، وأرى خياليهما الرائعين يتمايلان على الدروب ويرقصان على الأسطح وعلى أغصان الأشجار.

وحين أستيقظ أسأل أمي: متى ستشعلين لنا نار الكانون وتطبخين لنا الحساء؟ فتقاطعني على عجل: حين يموت نجم.

حلم

مـا زلـتُ أتساءلُ إن كنتُ السببَ في كلِّ مـا حـدثَ للنسـاء اللواتـي أتـين مـن بعـدي، هـل كـانَ علـيَّ أنْ أصـوغَ رداءً مـنَ النـسيانِ أم أوقفَ الزمنَ متجاهلةً رائحةَ المشتهى؟. حـينَ التقينا أخبرَني أن دليله إلـيَّ كـان آثارَ قدمـيَّ علـى الـرملِ، لا أذكـرُ أنني دستُ على رملٍ أو ترابٍ فأنا حينئذٍ لم أكـنْ قـادرةً على التمييزِ بينهما أو حتى معرفتِهما كما أنـني لمْ أكـنْ أعـرفُ أنَّ الانتظارَ يقاسُ بشيءٍ اسمهُ الزمنَ الـذي يتركُ آثاراً على الرملِ والترابِ، وقد يكونُ واقفاً ولا يتركُ أيَّ أثـرٍ. الآنْ وأنـا أرى حالَها أشـعرُ بندمٍ شـديدٍ لأنني قمتُ بتحـريكِ الـزمنْ، نعم أعترفُ بـأنَّ خطيئتي الكـبرى كانـتْ في تحويلِ الزمنِ إلى بحثٍ وشوقٍ إليهْ. كانَ رفيقي يـومَ كنا في نعيمْ، وحـينَ وجـدتُ نفسـي وحيدةً على هـذا

الشيءِ الجافِّ جزعتُ وشعرتُ بالحيرةْ، بعدَ قليلٍ هبتْ ريحٌ استشعرتُ بها شيئاً يشبه رائحتَهُ الشهية، مشيتُ إليهِ معَ ريحِ الشمالِ وبعدَ مشيٍ لا أدريْ مقدار زمنه توقفتِ الريحُ وأضعتُ وجهتي فحولتُ الزمن إلى وقوفٍ ثمَّ هبتْ عليَّ زوبعةٌ من أتربةٍ ورمالٍ حجبتْ عني الفضاءَ الشفافَ وأدمَتْ جسدي بوخزاتِها الحادةْ، هتفتُ: إنهُ هو. أطلقتُ كفيَّ أبحثُ عن ملمسِ جسدِهِ القويِ فارتطمَتا بالرمالِ والأتربةِ، أيكونُ بعدَ نزولِهِ على هذا الشيءِ الهشِّ صارَ رجلاً من ترابْ؟ سحبتُ نفساً عميقاً، وصلتني من خلالهِ روائحُ جديدةٌ، إذن ليسَ هو. نفضتُ عن جسدي الغبارَ وبقيتُ واقفةً في مكاني أنتظرُ إشارةً تدلني إلى مكانِه، وحين وصلتني سرتُ إليهِ معَ ريحِ الجنوبِ وبدأ رأسي يمتلئُ بالأحلامِ، إنه هناكَ يقضي الزمنَ واقفاً أو ماشياً إليَّ، وتخيلتُهُ يهرولُ صوبي بجسدِهِ العملاقْ، آهٍ ما أحلاهُ! لو يصلُ إليَّ بسرعةِ الريحْ، ولماذا لا أستسلمُ أنا للريحِ فتأخذني إليهِ؟ أغمضتُ عينيَّ واغتنمتُ ذروةَ جنونِها وحولتُ الزمنَ إلى طيرانْ، صارتْ رائحتُهُ قويةً، ثمةَ شيءٌ يضجُّ في عروقي، عرفتُ فيما بعد أنَّه مزيجٌ من الفرحِ والشوقِ والرغبةِ، فجأةً توقفتِ الريحُ ووجدتُ نفسي في

سائلٍ لا لونَ له ولا طعمْ، هتفتُ: إنَّه هو، لقد تحولَ بعدَ خروجِنا إلى سائلٍ منعشٍ. غسلتُ به جسدي المغبرَّ والمتسخَ، بللَّتُ شفتيَّ الجافتين وشربتُ منه حتى ارتويتُ، ثم استلقيتُ على ظهري ونمتُ في حضنِهِ المنعش وحينَ استيقظتُ قررتُ تحويلَ الزمنِ إلى رقصٍ ولهو، وأعترف بأن العوم أو السباحة في عالمه كان شهياً وممتعاً، لكنني تخليتُ عنه حينَ اكتشفتُ أن البقاءَ في حضنِهِ مغامرةٌ مميتةٌ فقد تحوَّلَ جسدُهُ إلى شيءٍ باردٍ وأصبحَ بعدَ ذلكَ قاسياً ثم بدأتْ قسوتُهُ تتسربُ إلى جسدي وتمنعني من الحركة ، عندئذٍ قررتُ تركَهُ وشأنَهُ، ثمَّ اكتشفتُ أن الهروبَ من غيره مستحيلٌ، لقد التصقَ بي، جاهدتُ كثيراً لأبعدَهُ عني فلمْ أفلِحْ، أخذتُهُ معي وخرجْتُ من الحفرةِ حين كان يحيطُ بي من كلِّ الاتجاهاتْ، نظرْتُ إلى المكانِ الذي كنا ننامُ فيهِ وكانَ حفرةً لم يبقَ فيها إلا الطين. قررتُ تحويلَ الزمنِ إلى ركضٍ أومشيٍ، لكنْ عبثاً ما زالَ ملتصقاً بي، فكرتُ بالعودةِ إلى سريرِنا الخاوي فلم أستطعْ الوصولَ إليهْ، رجوتُهُ أن يتركَني وشأني فظلَّ ملتصقاً بي ، تسمرْتُ في مكاني وتذكرْتُ الزوبعةَ بغبارِها وحصاها والريحَ التي طيرتْني إليه ورمتْني

في حضنِهِ، مـرَّ الـزمنُ الجليديُ بطيئاً وبـارداً ثـم أشمـسَ فـرأيتُ الـرجلَ الجليديَّ يبكـي ثُـمَّ يتلاشـى فعـدتُ بعـد تلاشيه حرةً طليقةً ورأيتُ خيراً لي أنْ أعيشَ وحيدةً منْ أنْ أحملَ رجلاً من جليد. لكنَّ هذا لم يستمرْ، فذاتَ زمنٍ وبعدَ سـكونٍ وضجرٍ أتتْني رائحتُهُ فتجاهلْتُها، صارتْ رائحتُهُ قريبةً ودافئةً، تذكرْتُ طراوتَهُ المنعشةَ في سريرِنا الطيني، تناسيْتُ برودَتَهُ الجليديةَ واستسلمتُ لحلمٍ لذيذٍ، أنا معهُ في سريرِهِ الدافئ كلانا يحتضن الآخر، قدرت أن برودته ولَّتْ إلى غير رجعة ولذلك استجبتُ لندائِهِ ورأيتُهُ عن قربٍ شيئاً يتوهَّجُ فرميتُ نفسي في جحيمِهِ وصرخْتُ من اللذةِ والألمِ، كانت ناره أشد إيلاماً من صقيعه وهذا ما دفعني للهروب منه وذلكَ بأن رميتُ نفسي بعيداً عنه، لكنه علِقَ بشعريَ الطويلِ والتهمَه حتى آخرَ خصلةٍ منه بعد أنْ أدمى جسديَ العاريْ وأحرقه فلم أعدْ قادرةً على السيرِ. بعد ذلك حولّتُ الزمنَ إلى جلوسٍ ونومٍ وندمٍ وكثيراً ما تساءلتُ وأنا أتلوى من الألمِ عن الخطيئةِ التي ارتكبناها لأعُاقبَ بسببها بالوحدةِ والوحشةِ والألمِ في الوقت الذي يعاقب هو بتحولاتٍ مخيفةٍ: غبارٌ، ريحٌ، ماءٌ، نارٌ. لقد آلَمَني حين كانَ غباراً وأتعبَني في تحولِهِ الثاني ثمَّ

جمَّدَ جسدي في تحولِهِ الثالثِ وأحرقني في تحولهِ الأخيرْ، تذكرتُهُ رجلاً جميلاً فتياً عذباً رقيقاً بطلعةٍ بهيةٍ، شعرْتُ بشيءٍ يضجُّ في عروقي، أيكونُ حلَّ في جسدي؟ نظرتُ خلفي فلم أرَ إلا دخاناً وآليتُ على نفسي أن أهربَ منهُ في كلِّ تحولاتِهِ السابقةِ واللاحقةْ.

أغمضتُ عينيَّ زمناً أجهلُ مدتَهُ وحين فتحتُهما لم يكنْ هناكَ ألمٌ أشعرُ به أو أيَّ إدماءٍ على جسديَ العاري ورأيتُ شَعري عادَ كما كانَ ناعماً وطويلاً يغطي كاملَ ظهري، نظرتُ أمامي فرأيتُ ظلاً يتجهُ نحوي، لم يكنْ ذلكَ الظلُّ غباراً أو ماء كما لم يكن ريحاً أوناراً، كان هو، عادَ بعدَ كل هذهِ التحولاتِ إلى طبيعتِهِ الأولى. نظرَ كلٌّ منا إلى الآخر، كان مغبراً متعباً وكنتُ متسخةً وشاحبة، تدفقت الدموعُ من أعيننا فاغتسلتُ بفيضِ دموعِهِ ونظَّفَ الغبارَ عن شعرِهِ ووجههِ بفيضِ دموعي، قال: لقد دفعْنا ثمنَ التمردِ غالياً. أجبتُهُ: لكننا الآنَ أحرارْ. ردَّ: الحريةُ في الندم على مااقترفتَه أيدينا.

ـــ ولكنَّ المعرفة، الحرية هيَ التي أخرجَتْنا من العبودية.

لم يجبْ بلْ بسطَ كفيهِ أمامي فأورقَتْ أصابعُهُ أكداساً من الخضرةِ النديةِ صنعَ منها رداءً غطى به

كامل جسدي ثم قطفَ من غابةِ صدرِهِ أربعَ أضموماتٍ من زهورٍ بيضٍ، حمرٍ، صفرٍ، بنفسجيةٍ وزرعها على ردائي الأخضرْ. دسَّ أصابعَهُ بين خصلاتِ شعرهِ وأخرجَ من بينها ثلاثَ ريشاتٍ حاكها منديلاً لأضعَهُ على رأسي وقال: إنه يقيني من أشعةِ الشمس. لا أدري إن كانَ هذا الشيءُ هو الذي جعلِ عظامِ رأسي هشة وطرية وصرت بسببه مطواعة سهلة الانقياد، لم أحب الرداءَ، إنه قيدْ، وكرهتُ المنديلَ، إنه رسن. قلتُ لهُ: لقد خيبْتَ ظني، فأجابني: ستعتادين. حاولتُ الهروبَ منه فشدَّني إليهِ بطرفِ المنديلْ، تمردتُ على شريعتِهِ فأنتجَ شريعةً أكثرَ قسوةً، وعلى الرغمِ من ذلك رضختُ لها وهذا ما فعلتْهُ كلُّ النساءِ اللواتي أتيْنَ بعدي.

المُقنَّع

استيقظَ نبيلٌ في السادسة صباحاً وبدأ يُجهِّز نفسَهُ للذهاب إلى المحكمة، مشط لحيته التي اشتراها من صالون الحلاقة النسائية قبل أسبوع وتحديداً يوم سلَّمه موظفٌ في المحكمة الاقتصادية ظرفاً مختوماً وطلب منه أن يوقّع تحت اسمه على ورقةٍ دسّها الموظف فورَ توقيعه عليها في مُصنفٍ كان يتأبطه وخرج وأغلق الباب وراءه بازدراء، وحين فتح نبيل الظرفِ بدأ قلبه يخفق بشدة وشعر بمغص يكاد يُقطِّع أمعاءه ثم اربدَّ وجهُه وراحت حبات العرق تتدحرج على جبينه، أعاد الورقة إلى الظرف الرمادي ووضعه في جيبه الداخلي وقرر أن يسترخي ويُكسِب محياه تعابير فاترة خوفاً من أن يدخل إلى الغرفة أحد موظفيه الفضوليين ويرى وجهه المتعرق وينتبه إلى حركاته المضطربة فينقل ذلك إلى غيره من الموظفين

الثـرثارين بطـريقة مـبالغٌ فـيها ويعجّـل هـؤلاء في إطـلاق شـائعات تـزيد الطـين بلـة فيرتبك ويعجـز عـن إيجـاد حلٍ أو يفقد القدرة على تفصيل قناعٍ جديد.

مسح العرق عن جبينه المجعد وقـرَّر أنْ يتخلصَ مـن قناعٍ قديمٍ فصَّله ولبسه تماشياً مع مرحلة كانت قبل عقدٍ ونصف مستجدة، مـرَّر أصابعه على وجهه، لملم عنه قناع العلمانية وأطلقه في فضاء المكتب وعلى الفور بدأ بصنع قناعٍ جديدٍ أمسك جهاز التحكّم بالمكيف، ضغط على زر التشغيل وقـرَّب وجهه مـن الهواء البارد والمتدفق مـن المكـيف. لـو دخـل مـراجع مـا أو موظـف إلى مكتـبه لاستغرب تشغيل المكيف في شهر ربيعي الجو فيه أقرب إلى البرودة منه إلى الحرارة المعتدلة، تمنى نبيل في تلك اللحظات لو يستطيع تجميد وجهه بحيث يبدو كوجوه المنحوتات الحجرية، عندها سيحكم عليه كل من يراه بالوقار والجلال أو الجمود الخالي من أي تعبير وبذلك يحصل على قناعٍ مناسب.

كيف انقطع الحبل بينه وبين ولي نعمته كما كان يسميه؟ لو أنه أبقى على شعرة واحدة في الحبل لكان بالإمكان إعادة وصل الباقي. أما أن تصل الأمور إلى المحاكم!

ـ قُضيَّ الأمر. قالها وهو يصّوب وجهه إلى البرودة التي تتسلل من المكيف، ابتعد قليلاً إلى الوراء وحين خُيِّل إليه أن القناع الجليدي التصق بوجهه وأخفى كلَّ أثرٍ للقلق والخوف سار كتمثال من الجصّ باتجاه الطاولة، فتح جارور مكتبه أخرج منه مرآةً صغيرةً، ثمَّ نظر إلى وجهه فلم يعجبه الوجه الموميائي الذي رآه في المرآة ورأى أن العودة إلى الأقنعة القديمة أمرٌ جيدٌ وقد يصلح أحدها قناعاً يخلِّصه من تهمة الفساد، قام عن كرسيه، أقفل الباب وعاد إلى جلسته الأولى، شرد متذكراً الأقنعة التي لبسها في حياته، إنها أربعة، قال نبيل ثم راح يحصيها، قناع البراءة وقناع البلاهة وقناع الوطنية وأسمى الرابع الذي لملمه عن وجههِ قبل دقائق بالقناع العلماني، والآن عليه أن يضع مكان الأخير قناعاً يضفي عليه الهيبة والوقار ويكون أقرب إلى بشر الشارع العاديين خاصة منهم الدراويش منه إلى أسياده الفاسدين والمفسدين، شرد نبيل يفكر بلون القناع الجديد وشكله وحجمه اذ من غير المعقول أن يلبس القناع الموميائي لفترة طويلة كما أن قناعاً كهذا لن ينفعه بشيء ولن يمنحه صكَّ البراءة من تهم الفساد المنسوبة إليه فما جدوى أن تظل عيناه تنظران ببلاهة إلى جهة واحدة ويبقى فمه مشدوداً أو مغلقاً كالأبكم، إنَّه يحتاج قناعاً مطاطياً كسابقيه من

الأقنعة، وعاد نبيلٌ يتساءل عن لون القناع المناسب لمن ملأ جيوبه بالمال وفكَّر: هل يعود إلى قناع الوطنية؟ وهل ستنفعه العودة في تبرئته من تهم الفساد والرشاوى؟ قدَّر أن تكون العودة لصالحه لأنَّ الوطني الحقيقي لا يسرق أبداً ولكن ماذا عن الأدلة التي لا تقبل الشك على فساده وتورطه في صفقات باتت معروفة لرجل الشارع العادي؟ ثُمَّ... قدَّر نبيلٌ أن ارتداء قناع الوطنية سيثير سخرية الآخرين وسيصبح بسببه أضحوكة يتداولها الجميع. إذن ما لون القناع وما حجمه؟ وهل يوجد قناع يعيد إليه هيبته؟ و... فكر نبيل بقناع البلاهة وقدَّر أنَّه سيكون ذا فائدة كبيرة في الورطة التي وجد نفسه فيها، ولكنْ هل يليق به أن يستبدل بالقناع العلماني والوطني قناع البلاهة؟ وفكر: لم لا، مادام سينقذه من السجن والمحاسبة؟ كلا، فالقضاة وسيده أدهى من أن يتعاملوا مع هذا القناع أو يقبلوا أن يتعاملوا معه لأنَّ الزمن والظرف تغيرا ولايشبهان ظرف البلاهة الذي افتعله فيما مضى. راح نبيل يدور في مكتبه وبيده جهاز التحكم بالمكيف، تارةً يطفىء المكيف وتارةً يشغلّه، ثمَّ يرميه على الطاولة ويعاود التقاطه ويدور باحثاً عن القناع الجديد، لكنَّه ودون أن يعود إلى زمن البراءة يتساءل إن كان قناع البراءة قادراً على إنقاذه مما وصل إليه؟ أعجبته الفكرة وقدَّر أن

يكون مخلِّصه الوحيد، أمسك بالمرآة، وضعها أمام وجهه ونظر إلى عينيه المطمورتين بالزوائد اللحمية المتجمدة، فتح عينيه على آخرهما وقرر أن يتفحصهما بهدوء علَّه يلمح بهما شيئاً من البراء ة والصفاء واكتشف أنه ليس من السهل قراءتهما لأنهما ببساطة فقدتا صفاءهما المعهود وثمة غشاوة تكاد تغطي البؤبؤين فصار من المستحيل معرفة لونهما الحقيقي، كما أنَّ وجهه اكتسب ملامح بلا هوية، بمعنى آخر صارت معانية خليطاً غريباً لا يحمل هوية معينة وضع نبيل المرآة في درج مكتبه وعاد يدور بين جدران الغرفة يبحث عن قناعٍ يبرئه أو يساهم في تبرئته كمحامٍ لا تقبل مرافعته الرد وكل من يفكر في التصدي لها أو الرد عليها يسجن أو.... أخرجه من بحثه صوت خُيّلَ إليه أنَّه آت من الجدران يطلب منه التصرف فوراً وإلا... كم تخيفه هذه المفردة ووجد نفسه يردد بصوتٍ عالٍ: سأتصرف، سأتصرف ولكن. راح نبيل يحرك يديه ويشتم الصوت الذي أتاه، في لحظة برق الحل أمامه كنيزكٍ ثم اختفى واستعادت ذاكرته الأقنعة السابقة ومحتها على عجل وتوقف عند محامٍ مرافعته فاصلة ونهائية، نعم المحامي أفضل، إذن عليه أن يعود إلى علمانيته، إذ من العار وهو في مركزٍ كهذا أن يعود وطنياً صالحاً أو أبلهاً أو حتى بريئاً على الرغم من قناعته

باستحالة تلبُّسِ القناعِ الأخير لأن زمن البراءة ولَّى إلى غير رجعة. رفع نبيل سماعة الهاتف ليستشير محامياً كان صديقاً له، وبينما تلامس أصابعه الأرقام تجمدت على رقم سبعة وشرد قليلاً ثم أطلق ضحكةً مدوية ارتجت على أثرها الجدران بعد ذلك ترك الهاتف وجلس على كرسيه يشكر الله على عدم ارتكابه حماقة كانت ستؤدي إلى فضيحةٍ مدوية وهمس: هه، محامٍ ومحكمة وشهود أي جنونٍ هذا؟! نظر نبيل إلى جدران مكتبه المغطاة بالثناءات وشهادات التقدير وبطولات الإنتاج وبراءات الإختراع التي أمطرته بها جهاتٌ رسمية وغير رسمية بوصفها مكافآت على جهوده وتميزه وعرفاناً على منع الهدر والمحافظة على المال العام خلال توليه منصب مدير مبيعات الشركة، ترى هل تصلح هذه الشهادات لتبرئته؟ عاد يتجول على أرضية الغرفة المغطاة بالموكيت، هل يحملها إلى المحكمة ويعرضها أمام الجميع؟ وهل سيعترفون بها؟ ولماذا لا يعترفون طالما تحمل تواقيعهم؟ و...سخر نبيل من تقديره واستبعد هذه الفكرة حين تذكر أن الذبيحة حين تقع يتسابق الجميع لتقطيع لحمها بالسكاكين المسنونة وهو الآن لا يختلف عنها بكثير إذ لا أحد سينظر إلى شهادات التقدير ولن يهتم المقربون منه ببطولات الإنتاج بعد اليوم وسيكتشف الجميع زيفها وسيصرِّح مانحوها بأنَّه دفع

ثمنها أضعافاً مضاعفة نقوداً وصفقات. ما الحل إذن؟ تساءل نبيل وعيناه تتجولان على اللوحات المليئة بعبارات التملق والتزلُّف التي بدت له في تلك اللحظات كأنها صكوك إدانة، بل خُيِّل إليه أنَّ الأحرفَ تخرج من إطاراتها وتمد ألسنتها صوبه وتؤكد فساده وتهدده بأنها ستنتقم منه شرَّ انتقام. وفقط... لوحة واحدة ظلت صامتة ومنعت أحرفها من التطاول على نبيل، ما هذه اللوحة؟ تساءل نبيل وهو ينظر إليها ويقرأ المفردات المكتوبة بخطٍ يختلف عن الخط الذي كتبت به بقية اللوحات. اقترب نبيل منها وأبعد عنها لوحتين كانت مفرداتهما تستطيل نحوه ساخرة منه تارة وتارة مهددة، هل تشبه اللوحات البشر؟ أخرج اللوحة الصغيرة عن الجدار وضعها على الطاولة وجلس على كرسيه الدوار نظر إليها فبدت له مفرداتها أحجيةً يصعب حل طلاسمها أو حتى قراءتها، وبعد تهجئة حروفها المكتوبة بالخط التشكيلي، قرأ البسملة واكتفى اذ هتف ملء صوته وجدتها، وجدتها، ومن حسن حظه أنه لم يكن ثمة مراجع يطرق بابه أو موظف يمر في البهو المقابل لمكتبه ولذلك فقد ظل الصوت رهين الجدران أما اللوحات فقد أعادت كلماتها إلى حجورها نادمةً على ما اقترفته حروفها الشيطانية احتضن نبيل اللوحة المخلِّصة، قبلَّها عدة مرات ثم بسمل

وحوقل وانحدرت دموع الفرح من عينيه، نظر بعد ذلك إلى اللوحات الخبيثة ووضع اللوحة الصغيرة على الطاولة وقام كمنتقمٍ جبار بنزع شهادات التقدير عن الجدران والثناءات وبراءات الاختراع وراح يرميها على أرضية المكتب المفروشة بالموكيت حتى إذا انتهى من نزع آخر شهادة تقدير عن الجدار كوَّمها فوق بعضها وراح يدوسها بتشفٍ وحقد شديدين جزاء ما اقترفت حروفها من خيانة وخداع وغش ومكر، وبعد دقائق كانت شهادات التقدير وبراءات الاختراع نتفاً ورقية موزعة في أرضية المكتب، وبدل أن يرميها في سلة المهملات تركها تتصارع فيما بينها ندما ورآها تتطاير باحثة عن مخرجٍ لها ثم جلس مع لوحته، مخلِّصته يتحدث إليها حديث ظمآن وجد بعد بحث طويل نبع ماء عذب وتساءل عمن يكون قد حملها إليه ثم مسح عنها الغبار وأفرد لها مكاناً خاصاً بها يقع مقابله تماماً، بعد ذلك نظر إلى الكلمات تبحث عن منفذ لها تخرج منه فقرر معاقبتها، قام عن كرسيه وراح يلملم الكلمات ويضعها تحت قطعة الموكيت ويدوسها بقدميه وهو يردد أنتم أكثر نفاقاً من البشر فما هو من عند البشر يشبههم وما هو من عند الله يشبهه. وعاد ينظر إلى اللوحة ويضع خطة للخلاص، مرر أصابعه على وجهه فشعر بندمٍ شديد لأنه قام بحلقها قبل أن يأتي إلى العمل،

ماذا سيفعل؟ ترى هل توجد لحى جاهزة في السوق؟ وهل ثمة لوحات تشبه اللوحة المخلصة؟ خرج نبيل متخفياً من مكتبه، أقفل الباب واتجه إلى السوق يبحث عن لحيةٍ طويلة وعاد بعد أقل من ساعة إلى مكتبه ومعه كنزهِ الثمين، الذي يتألف من لحيته الطويلة وسبع لوحاتٍ مخلصة، أقفل الباب على نفسه وألصق القناع الجديد على وجهه وبعد أن ثبته جيداً أخرج المرآة من جارور الطاولة ثم نظر فيها إلى وجهه فبدا عليه الارتياح الشديد وبات متأكداً أنَّ وجهه يتلائم مع جميع الأقنعة وكأنَّ الله خلقه لحياةٍ كهذه، وأسرَّ في نفسه أنَّه بموهبةٍ كهذه سيحمي نفسه من ألسنة السوء وسيضمن لنفسه حصانةً تمنع أياً كان من اتهامه بالفساد، وفي حال غامر أحد المتنفذين واتهمه بالفساد فإن الجميع سينقضّون عليه إذ لا أحد يصدق أن يقوم ملتحٍ تقي ورع بأعمال فساد تصلّ حد اقتراف سرقة لقمة الجياع، ثم أليست اللحية وأشياء أخرى كالبسملة والحوقلة جداراً فولاذياً تردَّ كُلَّ من يقتحمه على أعقابه؟ وربما عادت حراب المغامرين إلى نحورهم. وقدَّر نبيلٌ أنَّ المحكمة لن تصل بوجود هذا القناع إلى نتيجة ورأى أن هذه الفكرة هي الطريقة الوحيدة للرد على ولي نعمته وعلى كل من اتهمه بالفساد الذي تخلى عنه بسبب.... ، لا.. ، يجب التعامي عن الماضي من أجل

البدء من جديد. نظر نبيل إلى اللوحات الجديدة وبدأ بتوزيعها على الجدران وحين انتهى من توزيع آخر لوحة ضغط على الزر فدخل عليه المستخدم وألقى عليه تحية الصباح فلم يرد عليه، بل طلب منه أن يستبدل بها تحيّة (السلام عليكم)، نظر المستخدم إلى وجه مديره الملتحي وانتظر أوامره الأخرى ثم نظر إلى الجهة التي ينظر إليها سيده فرأى الجدران مغطاة بلوحات لأقوال السلف الصالح وبعض السور القرآنية المكتوبة بماء الذهب.

اقترب المستخدم من ربِّ عمله بخشوعٍ وانحنى أمامه ثم استأذنه في تقبيل يديه من أجل التبرك ولا شيء آخر كما يمكن أن يتبادر إلى الذهن كالتملق والتزلف لا سمح الله، لقد ولّت تلك الأيام إلى غير رجعة و... رأى نبيل المستخدم يبكي فرحاً ويشكر الله الذي هدى سيده ومولاه. وحين خرج المستخدم تحاشى أن تكون مؤخرته في وجه سيده التقي. وفي اليوم التالي كانت الشركة على علم بهداية مديرهم المفاجئة ودخلوا جميعهم إلى مكتبه وباركوا له خطه الجديد الذي تأخر قليلاً في السير عليه، لكن أن تأتي الأمور متأخرة خير من أن لا تأتي أبداً وبما أنه كان في صف الملحدين فقد اضطر للاستعانة في كثير من الأمور ببعض موظفيه المشهود لهم بالإيمان والورع، وهؤلاء كانوا له الناصحين الصدوقين فصار لا

يستقبل المراجِعات إلا مع محرم أو برفقة أحد الموظفين ولا يسمح لنفسه أبداً بأن يمد يده ليسلم على إحداهن، وامتنع عن استقبال المراجعين في أوقات الصلاة المعروفة وطالب ببناء ملحق للشركة يكون بمثابة جامع للصلاة في الشركة وريثما يُستجاب لطلبه حوَّل مكتبين في الشركة من أجل الصلاة، أحدهما للموظفين والآخر للموظفات، وأراد أن تكون نساؤه قدوة حسنة للسافرات منهن فقامت زوجته وبناته الثلاث بزيارة للشركة عرضن من خلاله أزياءهن الجديدة والمؤلفة من معطف طويل ومنديل يغطي الشعر وبرقع يحجب الوجه ويستثني العينين، ولم ينس العمرة إذ قرر أن يقوم بها بعد موعد المحاكمة مباشرة حيث أخبر المقربين منه أنه بريء مما نسب إليه فهو لم يعقد صفقات مشبوهة أدت إلى خسائر بالملايين كما أنه لا يرتشي، ولم... ولم....

لكنهم ألبسوه هذه التهم لأنه اهتدى أخيراً ورفض أن يكون مثلهم كافراً ومختلساً ومرتشياً.

وقف الأستاذ نبيل أمام المرآة ومشط لحيته مرة ثانية وثالثة ووزع على الأماكن الخالية من الشعر قليلاً من مسحوق التجميل، وحين رأى أنهَّا أضفتْ على وجهه نوراً ووقاراً أضاف كمية أخرى، ثم وضع قبعته على شعره

الأبيض الذي توقف عن صبغه باللون الأسود، وقدر وهو يجري الرتوش الأخيرة أن موظفيه والكثير من معارفه الجدد بدؤوا بالدعاء له ليخرج بريئاً من كلِّ تهم الفساد والرشوة التي بلغت حداً جعلت ولي نعمته يرفع الغطاء عنه، وردد وهو يسوي ياقة عباءته: لقد تماديت، خاصة في الصفقة الأخيرة، لو أنني لم أُدخِلْ إلى البلد عبوات حليب الأطفال الفاسدة!، لكنها والحقُّ يُقال كانت صفقة دسمة وكنت سأخرج منها كما تخرج الشعرة من العجين لو أنَّني أرسلتْ لولي نعمتي حصته الكاملة.

خرج الأستاذ نبيل من منزله الفخم متوجهاً إلى المحكمة وراح يدعو وهو على الطريق ألا ينسى صفقات الفساد والرشوة التي حدثت في الشركة على يد المدير الذي قبله، وأحياناً يوقف السيارة وينظر في المرآة ليرى إن كانت ملامحه ما زالت تقيّة وورعة خاصة عينيه وشفتيه اللتين أصرَّ على أن تتسم جميعها بالسخرية والازدراء وكأنَّها تقول: إني أخاف الله ولا أسرق زاد الجياع، أمثالي لا يسرقون، أنتم فقط اللصوص والمرتشون، ولولم تكونوا كذلك لما وصلتم إلى كراسيكم هذه.

بالطبع لن يقول نبيل هذا الكلام، بل نظرات عينيه واعوجاج شفتيه، نعم، ومن خلالها سيظهر أنه غير مكترث بهم ولا باتهاماتهم السخيفة والممجوجة والتي لم

تستثن مديراً سابقاً للشركة، وسيذكرُّهم بأسمائهم ورشاويهم واختلاساتهم، سيقول لهم: المدير الأول عقد مناقصة بالظرف المختوم من أجل التمديدات الصحية ورست على قريب له وبعد عام من تاريخ الانتهاء من إنجازها أصيب الموظفون بتسمم نُقلوا على أثره إلى المستشفى وتبين أن التسمم ناتج عن نوعية الحنفيات والأنابيب، أما المدير الذي أتى بعده فكان يقبض عن كل رأس خمسين ألفاً مقابل وظيفة (مستخدم) وخمساً وسبعين مقابل وظيفة (إداري) أما المدير الثالث فأغرق السوق بلحوم تبين بعد أن بيعت أنها لحوم حيوانات نافقة أما المدير الرابع.... بسمل نبيل وحوقل ثم قرر أن يردَّ على القاضي بعبارة (حسبي الله ونعم الوكيل). أخرجه صوت الهاتف النقال من استرساله فأوقف سيارته على يمين الطريق وفتح الخط فجاءه صوت ولي نعمته القديم يطلب منه أن يحولَّ لاسمه باقي حصته من الصفقة الأخيرة ويكف عن اللعب بذيله ليبرئه من كل التهم الموجهة إليه. أعجب الأستاذ نبيل بالفكرة وشكر معلمه وقدر أن تكون أدعية موظفيه وأصدقائه لاقت طريقها إلى السماء وتساءل بعد أن أنهى المكالمة: ترى أيهما أفضل: العودة إلى قناع العلمانية أم الإبقاء على القناع الحالي ؟ ولي نعمتي أم البقاء على الطريق الجديد؟

شـعر الأسـتاذ نبـيل بـالحيرة لأن مـا يـسميه القـناع العلمانـي والمتمـثل بولـي نعمـته أخـرجه مـن ورطـة كـان سـيدخل بـسببها الـسجن بعـد أن يعـيد كـل مـا اختلـسه، لكـنَّه في الـوقت ذاتـه كـان علـى قـناعةٍ بـأنَّ إخـراجه مـن الـورطة مـا كـان يجـري لـولا القـناع الغـيبي والمتمثل بأدعية موظفـيه ومعارفـه الجـدد الـنابعة مـن القلـب. أخـيراً قـرر أن يخـرج مـن الحـيرة فنظـر إلى مـرآة الـسيارة ورأى وجهـاً بـلا ملامـح اعتقد أن المرآة مكسورة، نظر إلى المرآة الخارجية فـرأى عـدة وجـوه، البـريء والأبلـه والوطني والعلماني، قفل راجعـاً لـيرى وجهـه في مـرآة البـيت الكـبيرة والنظـيفة فرأى وجهاً تتبدل عليه الأقـنعة كمـا الصور على شاشة العرض وأخيراً توقـف القـناع الأخير دقائق ثم اختفى ليرى في المرآة الطـويلة مـرة أخـرى وجهـاً بـلا ملامـح وجـسداً بـلا رجـولة، هـذا كلـه لم يـزعجه فهـو علـى قـناعة بـأن الأقـنعة الـتي تـبدلت علـى وجهه ستكون رفيقته الدائمة ولذلك صار من المعـتاد مـع مـرور الأيـام أن يـراه موظفـوه ومعارِفـه بأقـنعة مختلفة الألـوان ومتبدلة الأشـكال وهـذا إن دلَ علـى شـيءٍ فإنما يدِّل على غناه وتنوعه وتعدد مواهبه.

طموح

تتناقل المدينة الصغيرة هذه القصة على أنَّها حدثت بالفعل، بطلها الرئيسي والفاعل رجلٌ كان حينئذٍ في العقد السادس من عمره، اعتاد وهو يجلس وراء طاولته أنْ يسأل كلّ ضيفٍ يدخل إلى مكتبه إنْ كانَ من أقرانه أو من رفاق المدرسة، وهذا السؤال يوجهه حصراً إلى رجالٍ في العقد الثالث أو الرابع من العمر، و كان يعتذر عن استقبال ضيوف في العقد الخامس والسادس وما فوق بحجة العمل، ولكي يبدو في أصغر سنٍ ممكنة فهو يحتفظ في جارور طاولته بمشطٍ سحريٍ يكفي أنْ يمرره مرة واحدة كل يوم على شعره الطويل فيغطي بياضه الناصع، وكذلك شاربه هو الآخر يمرِّر عليه المشط السحري فيجعل الشارب الأبيض حالك السواد، ويقال أنه حصل عليه من ساحرةٍ عجوزٍ تسكن في كوخٍ يقع في قلب

حرشٍ بعيدٍ عن المدينة وهي لا تخرج من مسكنها المغطى بالأشجار والنباتات المتسلقة، وهذه العجوز أعطته كذلك معاجن ومساحيق يمسح بها وجهه وبذلك استطاع أن يحافظ على نضارة بشرته ويبقيها طرية ومرنة، هذا عن وجهه أما جسده فكان يعتني به عناية فائقة وكثيراً ما يذكر أمام ضيوفه أن وزنه لم يتغير مذ كان في العشرين من عمره، لكن شيئاً واحداً كان يزعجه ويسميه بينه وبين نفسه لعنة ضرورية أو شراً جميلاً وهو يتعلق بصورة قديمة يعود تاريخها إلى العقد الخامس من القرن العشرين، وهذه الصورة يصر على إبرازها ليس فقط لأنَّها تذكر الضيوف بحلم الوحدة بين مصر وسورية بل لأنَّها كذلك تمثل دليلاً لا يقبل الشّك على مكانته الوطنية وعراقة كفاحه السياسي، ومن حسن حظِّه أنَّ هذه الصورة الصفراء الباهتة التقطت مع الزعيم الوطني لتلك المرحلة في زمن لم تكن راجت فيه موضة تركيب الصور، لكنَّها كذلك لعنة، يردد دائماً، ويضيف متأففاً: إنها دليل لا يقبل الشَّك على أنني في الهزيعِ الأخير من العقد السادس.

دخلَ إلى مكتبه ذاتَ مرة رجل وزوجته وعلى الفور توقفت نظراته على المرأة الثلاثينية الفاتنة وسأل زوجها إن

كان أحد أقرانه، وقبل أن يسمع جواب الزوج تابع الأستاذ كفاح كلامه ملمحاً إلى اعتقاده أنه والمرأة من جيل واحد، لم تجب المرأة، لكن الرسالة وصلت إلى الرجل فذكره هذا بأنه، أي الأستاذ كفاح في العقد السادس بينما زوجته في بداية العقد الثالث، فرد الأستاذ كفاح مازحاً أقصد بالروح يا صديقي فكلانا في العقد الثالث وربما كنت أكثر شباباً منكما.

اعتاد الأستاذ كفاح على الاستعانة بسكرتيرات شابات بمقاييس جمالية محددة، بيضاء أو سمراء أو شقراء لا فرق بشرط أن تكون رشيقة القد، أسيلة الخد، لعوب منفتحة على الحياة، خالية من العيوب الشرقية، كما يقول، ثمة أمر كان يزعجه ويتعلق بما يبدو له من سلوك بعض السكرتيرات وما يكون على أرض الواقع إذ إن هؤلاء الموظفات كن يتركن المكتب بعد محاولة تحرش أو محاولتين وأحياناً بعد ثلاث محاولات، وعلِّم أنَّ هذا يتوقف على عوز السكرتيرة، واللافت أنه كان يرى في هذا العوز جاذبية جنسية تبقيه فحلاً كما يدعي أمام أصدقائه المقربين حتى أنّه كان يشعر بالسعادة وتبلغ سعادته حدَّ النشوة حين يرى الموظفة أمامه بثياب رثة تمد يدها ليعطيها مبلغاً من المال، ولم يكن أثناء ذلك يستطيع

كبح جماح رغبته الجنسية حيث يسارع إلى احتضانها وتقبيلها. وذات مرة كان يتابع مسلسلاً تلفزيونياً فرأى في إحدى حلقاته فتاة ترتدي مريول خادمة، صاح ملء صوته: وجدتها. وفي اليوم التالي اشترى من محل لبيع الألبسة مريولاً يشبهه، وصار يشترط على كل سكرتيرة تدخل إلى مكتبه ارتداءه لتبدأ بعد ذلك بتنظيف المكتب والطاولة على أن يكون اثناء قيامها بعملية التنظيف جالساً على كرسيه الدوار بعد ان يقفل الباب الرئيسي كي لا يفاجئه زائر أو مراجع ما مع سكرتيرته التي ترتدي مريول الخادمة الذي يبرز ساقيها وجزءاً من فخذيها. لكن للأسف كثيراً ما كانت السكرتيرة تفضِّل الهروب بكرامتها على أن تتلقى راتباً شهرياً وأعطياتٍ نقدية يومية وهدايا ومكافآت يحددها الأستاذ كفاح.

ثمة فَتاة شابة طرقت باب المكتب تطلب عملاً وقدمت نفسها على أنها فقيرة بل معدمة، وفوق هذا كله لا تعرف القراءة والكتابة كما أن أمها الأرملة تعمل خادمة في بيوت الأثرياء ويكاد ما تتقاضاه لا يكفيهم ثمناً للطعام، رقَّ قلبُ الأستاذ كالعادة لأن الفتاة الواقفة أمامه سمراء رشيقة القد أسيلة الخد، أما عن كونها أمية

فقد علمت أنَّ معرفة القراءة والكتابة ليست شرطاً لازماً لتُقبَل سكرتيرة في هذا المكتب، ثمة أمر لم ينتبه الأستاذ إليه في البداية وهو يتعلق بطموح رزان الذي دفعها للدخول إلى المكتب، فثمة شاب يقاسمه العمل في المكتب المكون من صالون طويل يفصل بينهما باب سحاب يفتح ويغلق حسب الحاجة، وهذا الشاب هو ابن الأستاذ كفاح.

ارتدت رزان ثوب الخادمة وبدأت على الفور في عملية تنظيف أرضية المكتب، انتقلت بعد ذلك إلى النوافذ والأبواب والطاولتين والكراسي والطرابيزات وبعد الانتهاء من عملها كوفئت بطوقٍ وقرطٍ وأساور من أدوات الزينة الرخيصة التي تباع على قارعة الطريق في البسطات، إذ رأى الأستاذ أنها تستحق، فهي لم تعترض كثيراً على تحرشاته المتواضعة، ويبدو أن الهدية لم تعجبها إذ رمتها في حقيبتها ولم تزين بها عنقها الأسمر المشدود وهذا (البطر) أزعج الأستاذ كفاح كثيراً، وفي اليوم التالي اشترط لبقائها سكرتيرة في مكتبه أن تطيعه في كل ما يأمرها، وكان طلبه الأول منها هو أن تعلق الحلي الرخيصة في عنقها وأذنيها وأن تضع الأساور في معصميها وترتدي مريول الخادمة، فالتزمت بشرطه وبعد أن انتهت من عملية التنظيف وضعت الحلي الرخيصة مع

المريول في كيس من البلاستيك ورمتها في زاوية الحمام، وبعد أسبوعٍ زينت صدرها بقلادةٍ فاخرةٍ وقرطين أضاءا سمرة جيدها الناعم، كانت الهدايا الأخيرة من ناصر، الابن البكر للأستاذ كفاح وهو الذي يساعده في إدارة أعماله الغامضة والمرخصة من جهات حكومية، وهكذا صارت رزان تتزين بالحلى الرخيصة مع مريول الخادمة، ويطرب صوت ارتطامها ببعضها وبأرضية المكتب وسطح الطاولتين سمع الأستاذ كفاح وعندما تنتهي من عملية التنظيف أي قبل وصول ناصر بدقائق قليلة ترتدي ثياباً تليق باستقباله وتتزين بالحلى النفيسة، هديته الفاخرة، ويجلسان معا يثرثران ويضحكان ويصل صوتهما إلى مكتب الأستاذ زقزقاتٍ يؤذي ترددها أذنيه المشنفتين صوبهما.

سارت الأمور في المكتب على الوتيرة ذاتها شهرين متتاليين، كان الأب خلالهما يتلظى بجحيم الغيرة إذ إن مقتله كان في شيخوخته وشباب ناصر وصبا رزان، ومع مرور الأيام شعر بأنهما يسخران منه ويجدان فيه بضاعة فقدت صلاحيتها، لكن لا ضير فرزان ترضي غروره وتسعده ساعة كاملة كل يوم بمريولها القصير وأصوات الحلى الرخيصة المزيفة كما أنها لم تهرب منه

كسابقاتها من الفتيات وهذا يعني أنَّه سيأتي يوم تصبح فيه طوع بنانه، وهكذا صار الأستاذ كفاح يعد نفسه لنعيم قادم يلتهم فيه الاعتياد رمل الزمن الذي يفصله عنها وما حدث بعد ذلك لم ينسف طموح الفوز بالنعيم الموعود.

ـ لكل مشكلة حل. قال في سره بعد أن استيقظ من غيبوبته في غرفة الانعاش ثم سأل عن ناصر فاخبرته زوجته بأنه هرب برزان واختفى، ولكي تعجل في شفائه فكرت بطمأنته وإسعاده فأخبرته أن العصفورين الهاربين استأجرا عشاً صغيراً وتزوجا. ثم أمسكت يده وراحت تداعبها وتقول له: يجب أن نفرح لأننا بعد أشهرٍ قليلة سنصبح جدين.

تمنى عندئذٍ لو يستطيع طرد زوجته من الغرفة بل وضربها حتى الموت لكنه ضبط أعصابه وأخبرها بأن رزان فتاة جاهلة ولا تليق بابنهما الجامعي، عادت تضغط على أصابعه وتذكره بأن الحب لا يعترف بحسابات كهذه، ثم أعلنت عن تفاؤلها بأن تكون أمية رزان في صالح ابنهما البكر المدلل.

ـ ستكون له مطيعة كخادمة أمينة. هز الأستاذ كفاح رأسه وأخبر زوجته بأن ما يزعجه ليس زواجه بها فقط بل كذلك الطريقة التي جرى بها هذا الزواج لأنه

كـان يخطـط لإقامـة حفلـة عـرس كـبيرة يدعـو إلـيها أصدقاءه ومعارفه الكثر، والآن...

شـرد الأسـتاذ كفاح بمـا فُعِلَ بـهِ وانتظـر مـن زوجته اقتراحاً يـتوافق مـع مـا يـدور في رأسـه ولمـا لم تجـب بـشيء تـساءل إن كانـت فـضيحة خطـف ابـنه لـتلك الجاهلـة قـد انتشر في البلدة... ترى هل تسرب خبر حملها بين الناس؟ لو أنها تجهض!.

لم تعجب الزوجة اقتراحات زوجها المبطنة، فالتخلص مـن الجنين جريمة كبرى. ثم أخبرته بأنها ستكون سعيدة حين ترى نفسها بعد ستة أشهر جدة تلهو مع حفيدها.

ـ غبية، غبية. كرر الأستاذ بينه وبين نفسه، ثم طلب مـنها أن تطلـب مـن ناصـر أن يعـوده لأنـه غفـر لـه طيـشه وتسرعه.

وفي جلسة ودية بين الأب وابنه أعرب الأول خلالها عن حـزنه الـشديد وخيبـته الكـبرى لتربيـته الفاشـلة ورأى ان أفـضل طـريقة لـستر الفـضيحة هـي عملية إجهاضٍ عاجلة ومـن ثـم إقامـة حفـل زواج تغطـي فخامـته وبذخـه الفـضيحة الكـبرى، خاصـة أنَّ الـناس جـبلوا علـى تناسـي هفـوات الأثـرياء وأصحاب القرار، ثم ألمح إلى أن الجنين قد يكون مـشتركاً بيـنهما وربمـا مـع ثالـث ورابـع، بعد ذلك سـأله إن

كان لا يزال حلم السفر واستكشاف العالم يراوده!؟ وقبل أن يجيب ناصر على سؤال والده أخبره الأخير أنه لم يعد يعارض فكرة السفر لأنه الآن أكثر وعياً وإدراكاً عما كان عليه قبل عامين حين حصل على جواز سفر من أجل إتمام دراسته.

خرج ناصر من غرفة والده من غير أن يعلق على أي من اقتراحاته، واللافت أنه لم يعد بعد ذلك اليوم إلى المكتب ولا إلى البيت.

أما رزان فأصبحت السكرتيرة الدائمة والمحظية المطيعة للأستاذ كفاح، ترتدي مريول الخادمة وتتزين بالحلى المزيفة والرخيصة وكانت منفتحة بما يكفي لجعلها تغرم بأصدقاء سيدها ومعارفه أيضاً، كما اعتاد العابرون من قرب المكتب على سماع قهقهاتها الفاجرة. لكن لا أحد يعلم أن قهقهاتها هذه كانت سخرية من الماضي القريب عندما تمنعت على كفاح وأحبت ناصر خفية عن والده وحملت منه ثم هربت معه بقصد الزواج، لكنها احترمت قرارها الحكيم القاضي بإجهاض جنينها فلو أنها ظلت متمسكة بما أسماه الأستاذ كفاح حماقة لا مبرر لها لكانت الآن زوجة لرجل واحد وأماً لعدة أبناء تفوح منها رائحة البصل والثوم والزيت والعرق و......

كـان العابـرون يـستغربون قهقهـات رزان وتـصفيقها الـدائم، وفي الـوقت ذاتـه اعـتادوا علـى سمـاع زوجـة الأستاذ كفـاح تـنوح وتبـكي على بـكرهـا الـذي اختفـى وتـرك رزان لوالده، وكـانوا يـسمعون الـسياسـي المحنك وهـو يحلف أمام ضيوفه أن الـصورة الـتي تجمعـه بـزعيمٍ وطـني كـبير كـان قـد الـتقطها لهـمـا مـصور مغمـور في حـياة سـابقة اجتمع فيه مـع ذلـك الـزعيم وأحـضرتها لـه امـرأة ادعـت أنهـا كـانـت زوجته في الحياة السابقة.

المصادفة الهاربة

ليست المصادفة وحدها ما يقف وراء وجود ديما وندى في غرفة بيضاء تقع في قسم أمراض الدم، بل هو أيضاً قرار الطبيب الذي صرح بعد أن عاين الفتاتين قائلاً: إن دخولهما إليه من أجل المعاينة في وقت واحد مصادفة لم تحدث معه في عيادته الخاصة من قبل ولا في معايناته العاجلة والعشوائية في قسم العيادات الخارجية الملحقة بالمستشفى الحكومي وقد لا تتكرر مستقبلاً على الرغم من قناعته بأن الحياة تخبئ دائماً مفاجآت جديدة، ولذلك أسمى مفاجأة ذلك الصباح الخريفي المصادفة الهاربة، وقدر عادل أن قوة ما تقف وراء ما حدث فقرر الاستجابة لإرادة تلك القوة الحكيمة وذلك بوضع الفتاتين في الغرفة رقم أربعة المكيفة ذات السريرين المريحين والخزانتين

الجديدتين. نفذت الممرضة قرار الطبيب بمساعدة المستخدم وصعدا معاً بالفتاتين على نقالتين بعجلات صغيرة إلى الطابق الثاني، وهناك قفزت ديما إلى السرير المحاذي للنافذة ومددت الممرضة بمساعدة المستخدم ندى على السرير القريب من البهو يفصلها عنه جدار أبيض ينتهي بباب عريض، غطت هدى الفتاتين ثم ذهبت إلى غرفة المناوبة وكتبت على سجل ديما المعلومات التالية: ديما السيد، عشرة أعوام، دم فائض عن الحاجة. وعلى السجل الثاني كتبت:

ندى قحطان، تسعة أعوام، فقر دم وراثي.

أضافت في اليوم التالي ملاحظات جديدة على السجلين:

ديما السيد، كثيرة الحركة، تعاني من الأرق وجلدها أزرق مائل للون البنفسجي.

ندى قحطان، قليلة الحركة، في حالة سبات متقطع، جلدها أصفر شاحب.

اطلع عادل على الملاحظات وطلب من هدى البدء بإجراء التحاليل المخبرية اللازمة وبدا متفائلاً بنجاح

فكـرته الـتي سـتـساهم في إنقـاذ الـشابتين الـصغيرتين، وبيـنما دم نـدى وديمـا يخـضع للتحالـيل المخـبرية كانـت الأخـيرة تـنقل إلى نـدى مـا تـراه في الـسماء، غـيوم تلعـب، تتشكل تـارة وتـتحول إلى وحـوش ثـم إلى طيور أو عمالقـة وأخيراً تـصبح خرافاً بيضاء جميلة ثم تذبح، تشير ديما إلى المطـر الـذي يلطـم الـنافذة بـرفق وتقـول لندى: انظري، إنها دماء الخراف المسكينة.

ـ ولكن لون الدم أحمر.

ـ هـذا صـحيح، لكـن دم خـراف الـسماء مثل الدموع بلا لون.

نظرت نـدى إلى الـنافذة وسـألت ديمـا إن كانـت ترى أشياء أخرى غير المطر والغيوم.

ـ يـوجد الـكثير. وقـبل أن تحـدثها عـن بعـض الـكثير الـذي تـراه نـبهت نـدى صـديقتها إلى وقـع خطـوات هـدى والطبيب: إنهما قادمان.

تظاهـرت الفـتاتان بالـنوم. حتى إذا سمعتا صوت هدى تطلـب مـنهما أن تتهـيّأا للفحـص اليومـي، فتحـتا عـيونهما وبعـد الانـتهاء مـن الفحـص خـرج الطبـيب وهـزتا رأسـيهما

للممرضة التي نصحت ديما كالعادة بالخلود للراحة التامة ثم حذرتها من الثرثرة المتواصلة. أزعجت نصيحة هدى الفتاتين فأبرمتا اتفاقاً ينص على أن تقوم ندى بتحذير ديما كلما سمعت وقع خطوات تتجه إلى الغرفة على أن تنقل الأخيرة لصديقتها كل ما تراه في الخارج عبر النافذة ، وفي الليل وبينما كانت هدى تشخر على كرسيها المتحرك كانت ديما تصف لرفيقتها الممددة بجانب الجدار الآخر البحر الذي يهاجم الليل ليعيده إلى بيته.

ـ ولماذا يهاجمه؟

ـ لأنه يجعله مخيفاً أكثر.

ـ وهل سينجح؟

أخبرت ديما صديقتها أن الصراع يزداد بين الليل والبحر، ثم طلبت منها أن تكتم أنفاسها قليلاً لتسمع صوتيهما.

اعتقدت ندى أن الأصوات التي التقطتها أذناها هي زئير الليل وهدير البحر فراحت ترتجف، لكن ديما طمأنتها حين أخبرتها أن الصوت الذي سمعته هو صوت تكسر الأمواج على الصخور وأكدت لها أن البحر

سينتصر، وبعد ساعات قليلة سيذهب الليل إلى بيته وستشرق الشمس، وريثما يحرز البحر النصر الأكيد قامت ديما من سريرها وجلست على قاعدة النافذة وحكت لصديقتها الوسنانة عن لعبة الاستغماية التي يتسلى بها القمر مع الغيوم البيضاء وأخبرتها أن النجمات يتابعنَ اللعبة ويتمنين لو يشاركن القمر هذه التسلية، لكن أنى لهن أن يلعبن وهن مربوطات في السماء (ببراغي) من الماس.

لم تسمع ديما تعليق صديقتها الصغيرة على حكاية القمر والغيمات فقدرت أن تكون قد استسلمت لحالة سبات طويلة ورأت أن عليها أن تحذو حذوها ، قفزت إلى السرير، تمددت وأغمضت عينيها فلم تستطع النوم وعلمت أن حالة الأرق زادت عن الليالي السابقة لأنهم تأخروا في تخليصها من فائض الدم.

فتحت عينيها ونظرت إلى صديقتها الغارقة في سبات عميق وتمنت لو أنها تفيق من سباتها لتحكي لها حكاية جديدة، لم تتحقق أمنية ديما ولذلك قامت من سريرها وراحت تنقل خطواتها بهدوء على أرض الغرفة ثم توقفت أمام نافذة غرفة المناوبة، أيقظت هدى من نومها وطلبت منها أن تخلصها من فائض الدم لتستطيع النوم.

ــ فـائض الـدم صـار لـندى. أجابـتها الممرضـة وهــي تتـثاءب ثـم أضـافت: سـنعرف نتيجة التحاليل غـدا ، والآن عودي إلى سريرك.

مشت ديما على رؤوس أصابعها ولحظة وصولها إلى الغرفة سمعت صوت ندى تطلب منها أن تحدثها عما تراه الآن. جلست ديما على سريرها وأخبرت صديقتها بأنها ترى الآن عروساً ترتدي فستاناً أبيض وحولها بنات وصبيان يصفقون وبينهم صبايا يغنين وعجائز يزغردن.

ـ لكننا في المستشفى!.

ــ أعـرف، أقـصد أن العـروس جـاءت لـتعود أحـد أقربائها المرضى قبل أن تذهب إلى حبيبها.

ـ أريد أن أراها.

ـ لن تلحقي، لقد صعدت إلى سيارة بيضاء.

تعلقت ندى بالعروس الخارجة من المستشفى وحولها الجمـيع يغـنون ويرقـصون ويزغـردون، هـتفت: لابـد أن العروس أسعدت جميع المرضى الذين رأوها بثياب العرس.

أوقفت ديما سيل تعليقات ندى حين نقلتها إلى مشهد آخر وهو هذه المرة في حديقة المستشفى، حكت لها عن

أطفـال يـركبون أراجـيح تحملـهم إلى الغـيوم وأشـجار عملاقـة تحمـي المستشفى مـن العواصف وأكـدت لها أنهـا تـرى زوارق تتهادى على شـاطئ البحر وعلى متنها صيادون يغنون ويهزجون: هيلا ، هيلا.

تـوقفت ديمـا عـن الحكـي لأن صـديقتها عـادت إلى سـباتها ، قامـت مـن سـريرها وجلسـت علـى طـرف الـنافذة تبحث عـن مشاهد جديدة تنقلها إلى ندى ورأت ذلك متاحاً لأن البحـر أفلح أخيراً في إعادة الليل إلى بيته وهاهو الفجر يسكب فضته على الأشياء من حولها ، شردت ديما تراقب الغـيوم البيـضاء وتـستمع إلى صـوت تكـسر الأمـواج علـى الصخورالـضخمة مـع حفيف أشـجار الكـينا العالـية ورأت عـن بعـد رفـاً مـن طيور البحـر البيضاء ، هتفت: سأخبر ندى أن طيور البحـر ضربت بمناقيرها زجاج النافذة.

كـان رف الطيور آخـر مـشهد رأتـه ديما لأن الممرضة الـتي دخلـت إلى الغـرفة لتـزف للفـتاتين خـبر تطابـق دمهمـا وبالتالـي إمكـانـية نقـل دم ديمـا الفـائض إلى جـسد نـدى، وسمعت الأخيرة تهلوس وتهذي بعد أن هدهـا المرض بقصةٍ تقـول أن صـديقتها ارتـدت ثـوباً أبـيض وخـرجت مـن المستشفى علـى صـوت الـزغاريد وأغانـي الفـرح، ركضت

هــدى إلى الــنافذة ونظــرت إلى الأســفل ثــم عــادت لتخــبر الطبيب بـأن المصادفة الهاربة اكتملت فصولها ، ثم أشارت إلى سيارة بيضاء تحمل جثة ديما. فتح الطبيب الباب وأبدى انـزعاجاً شـديداً لأن ديمـة ماتـت قبل أن يبرهن علـى صـحة النظـرية الـتي طـرحها في اجـتماع الأطـباء الأسـبوعي حـول إمكانية نقل الدم الفائض عن حاجة جسد ديما إلى جسد نـدى الـضعيف وسمعته هـدى يقـول غاضـباً: هذه هـي العادة طائري يهرب مني دائماً في اللحظة الأخيرة.

ذاكرة ثدي

كانت قد نزعت عن جسدها آخر قطعة من ثيابها حين خيل إليها أنها سمعت صوتاً آتياً من البعيد، قطعت أنفاسها، وشنفت أذنيها علهما تلتقطان الصوت البعيد مرةً أخرى، وحين تردد صدى الصوت منسرباً من بين شقي النافذة شُبّه إليها الصدى المتردد بصوت جابر، تدفق الفرح إلى قلبها وشعرت بحنين كبير إلى أيام الزمن البريء، فتحت النافذة وتمنت حينئذٍ لو تستطيع الطيران، تحسست بيديها المرتعشتين جسدها المتماسك وتذكرت أنها عارية تماماً. مسحت أصابعها غطاء السريرالأبيض، التقطت عنه حمالة الصدر وخبأت بها ثدييها الناعمين ثم ارتدت بلوزتها الخضراء وبنطلونها الرمادي، فتحت النافذة وخرجت تستجيب لنداء الهاتف.

قبل أسبوع شعرت بألم فظيع في ثديها، دورت أصابعها على القطعة اللدنة فتحسست بها ورماً صغيراً، أبحرت في ذاكرتها عميقاً في شجرة العائلة فلم تعثر بين أغصانها على ورقة أسقطها المرض القاتل، هتفت لأمها تخبرها بخوفها من المرض، فطمأنتها حين قالت لها: جدتك لأمك قتلتها لدغة أفعى وجدتك الأخرى ماتت بالتقادم فلا تتوهمي، أغلقت نورا سماعة الهاتف وهمست تسأل نفسها : والورم الصغير؟ والألم؟ الألم الذي يقض مضجعي؟

طرقت باب طبيب مختص بالأورام، وبعد أن عاين موضع الألم جحظت عيناه وشحب وجهه واضطربت أنفاسه وقال بصوت متقطع: لندع المخبر يقول كلمته التي لاتقبل الشك.

وريثما يقول المخبر كلمته راحت نورا تتأرجح بين الراحتين: الأمل واليأس، الحزن والفرح، الموت والحياة. وبعد ثلاثة أيام تغلب اليأس على الأمل وصار الحزن عصا لينة من شجرة القرعون الجبلية تضربها وتدميها وتخيلت الموت أخطبوطاً يزحف صوبها، يمسكها بذراعيها ويرميها في لجة الغياب.

حملت تقرير المخبري وناولته للطبيب، قرأه ثلاث مرات، وأثناء قراءته كان ينقل نظره بين السطور السوداء والإشارات الحمراء ووجه نورا الشاحب، ثم ارتسمت ابتسامة باهتة وقال: كما توقعت، الأمر بسيط، حين يستأصل الثدي يزول الخطر.

رمد الفضاء حولها ورأت الطبيب مومياء تحرك فمها ويديها، وضعت يدها على ثديها المريض وكأنه كنز سينزع منها ثم تراجعت باتجاه الباب وصرخت مذعورة: لا لن أسمح لك باستئصاله. شدها عادل من يدها وأجلسها على كرسي المريض وراح ينتظر قرار الطبيب الذي حدد بعد مراجعة مواعيده صباح اليوم التالي موعداً للعمل الجراحي، وقفت تتأهب للخروج كتمثال آيل للسقوط، دفعها عادل أمامه، وحين وصلت إلى جانب السيارة فتحت الباب وارتمت على المقعد، وتغلب الحزن على الألم وباتت على ثقة بأن الموت قادم على الرغم من أنها ما زالت في ريعان الصبا تضج أنوثة ونعومة، الموت قادم قبل موعده ربما بثلاثين أو أربعين عاماً.

حين وصلت إلى منزلها تجاهلت فرحة طفلتها بعودتها، دخلت إلى غرفتها متحاشية النظر إلى الجدران، استلقت على سريرها دقائق قليلة ثم قامت بعد أن قررت

أن تضع حداً لحياتها بيدها، أخرجت ظرف المسكنات من حقيبتها ورمت في فمها أول حبة وكانت ستلحقها بثانية وثالثة وعاشرة لولا صوت طفلتها وضجيج الحياة الذي أتاها من الخارج: ضحكات الأولاد، نداء الجارات صخب السيارات، أصوات الباعة.

أعادت ظرف المسكنات إلى حقيبتها، استلقت على السرير وراحت تستعيد كلام الطبيب فاكتشفت أن الأمر لا يتعدى عن كونهِ خسارة عضو مريض، غمغمت: لكنه الثدي القريب من القلب. تذكرت أن القلب للمشاعر والحب، منذ متى لم يخفق؟ لم يدق؟ لم يتمرد؟ لم يضج؟ حين تتبلد المشاعر يصدأ القلب فلا عجب أن يمرض الثدي القريب منه. قالت نورا عبارتها الأخيرة، وقامت من سريرها، إذ قررت فجأة أن تزيل الصدأ من قلبها وتعود للحياة، ولكن كيف؟

خرجت نورا إلى الشرفة، رأت أيادٍ تلوح لها، كانت يد ليلى إحداها فتذكرت أنها استأصلت ثديها قبل أربعة أعوام وكرت السبحة، سبحة النساء اللواتي خسرن أثداءهن وتابعن حياتهن بشكلٍ طبيعي، لا بل غدت حياتهن بعد استئصال أثداءهن أحلى بكثير، فصرن يرحن ويجئن ويمرحن أكثر من ذي قبل، وصارت

ضحكاتهن أقوى، باختصار لاحظت نورا أن شغف تلك النساء بالحياة زاد كثيراً عن أيامٍ كن ينعمن فيها بالصحة والعافية، وهي! هي بعد ساعات قليلة ستكون إحداهن، نعم سيستأصل الطبيب ثديها وستتابع حياتها وكأن شيئاً لم يكن. تغلب الأمل على اليأس، والفرح على الحزن واكتشفت أنها بالغت في خوفها وأسرفت في قلقها. جلست نورا على كرسي يقع وسط الشرفة وانشغلت بمراقبة الحياة، هتفت أكثر من مرة وهي ترى الأطفال والبيوت والشرفات والستائر: سأعيش وأخلص قلبي من الصدأ.

ولكي تضمن لنفسها الحياة الطويلة قررت نورا أن تسلم جسدها لمبضع الجراح وتقول له: خذ جسدي وافعل به ما تشاء، أريد أن أعيش. أريد أن أبقى لأربي صغيرتي، لأحب، لأستعيد الذكريات الحلوة، لأرى الشمس والقمر، وأشارك في ضجيج الحياة. لكن، لم يمنحها قرارها الأخير شعوراً بالأمان والاسترخاء فقضت ليلتها على الشرفة تراقب الحياة من حولها، الساحة خلت من الأولاد، أصوات الباعة اختفت وركن المسؤولون سياراتهم بجانب بيوتهم وأسدلت الستائر على النوافذ، فلا أيادي تلوح منها ولا ضحكات تخرج من بين أسوارها، الجميع نيام، ربما لأنهم لا ينتظرون الموت مثلها، بدا الليل طويلاً

وبعد طول انتظار تورد الأفق وحين احمر قامت نورا إلى غرفتها، ارتدت ثيابها وحملت حقيبتها وذهبت إلى المستشفى، قادتها الممرضة إلى غرفتها، ناولتها ثوباً أخضر وطلبت منها البدء بتجهيز نفسها للعمل الجراحي، وبعد أن أمطرتها بوابل من النصائح خرجت الممرضة وظلت نورا وحيدة، أقفلت باب الغرفة وأسدلت الستائر البيضاء، نظرت حولها فرأت كل شيء أبيض، ذكرتها نصاعة الأشياء ببياض الكفن، هتفت: لا، لن أموت، فقط ثديي سيموت ويرحل إلى مثواه الأخير. تعرت نورا، وقفت أمام المرآة فرأت ثديها المريض إجاصة تسترخي على جسدها، مررت أصابعها عليه، قبلته وتمنت لو تستطيع دفنه عند ضفة النهر حيث المكان الذي اكتشفت فيه انتفاضته الأولى، عادت بذاكرتها إلى ذلك اليوم، فتذكرت أنها جاءت إلى النهر مع فتياتٍ من عمرها كنَّ يتأهبنَّ لاستقبال المراهقة وحين وصلن تركتهن ولجأت إلى ركنٍ معزول، نزعت عن جسدها ثوبها الأبيض، وأبقت على ثوبها التحتي ذي اللون السماوي ثم ركضت باتجاه النهر ووقفت على ضفته تتأهب للقفز في زرقته المخضرة فرأت الأولاد ينظرون إليها، نظرت إلى شلحتها السماوية ثم لامست ثدييها المتورمين ارتجفت وخافت ثم سألت وفاء عن القادمين الجديدين، وإن كان لديها مثلهما، نظرت

الأخيرة إلى ثدييها الصغيرين ثم أجابتها وهي تشير إلى الثدي الأيسر: إنه فوق القلب تماماً والآخر يشبهه، هذان ابنا القلب.

اكتشفت نورا أن وفاء على حق، فمنذ بدأ ثدياها بالتكور صار قلبها يخفق لجابر ويومئذٍ هربا معاً إلى الغابة القريبة من النهر، لامس ثديها فازدادت ضربات قلبها وأسماهما يومها زغلولين، ثم حذرها من النزول إلى البحيرة للسباحة كي لا يرى الأولاد زغلوليه تحت شلحتها السماوية. هجرت نورا البحيرة وكبرت هي وجابر مع الزغلولين حتى صارا حمامتين لم يخالط بياضهما لوناً آخر، عندئذٍ عرض عليها الزواج.

انحدرت دمعتان كبيرتان من عيني نورا وتمنت لو يأتي جابر ويرى ماذا حل بالثدي الذي يملأ حجم كفه المفتوحة، أين هو لتقول له: الابن القريب من القلب سيرحل إلى مثواه الأخير. ارتجفت نورا وخيل إليها أنها رأت ثديها يبكي، فمسحت قطرات ماء عن حلمته، تذوقت ملوحتها وعادت إلى ضيعتها الصغيرة فرأت جابر فتىً يافعاً يدور بين الأشجار يبحث لها عن ثمار الخرنوب اللذيذة، ويحمل إليها ثمار البلوط الحلوة المُرة، وينصب لها الأفخاخ ليصطاد طيور الدرغل والسمّن ثم يشويها على جمر القرامي، همست منتشية: إنه هناك، ما زال ينتظر قدومي.

نسيت نورا أنها في آخر لقاء لهما أخبرته أنها ستتزوج (عادل) ابن الحكومة، حلم فتيات الضيعة، يومئذٍ نعتها بالخائنة، وهي أسمت زواجها منه طموحاً، والآن وبعد أن اكتشفت زيف طموحها وبدأت تشعر بصدأ قلبها قررت أن تذهب إليه لتأكل من يديه ثمار الخرنوب اللذيذة ويشوي لها عصافير الخريف المكتنزة ثم يغني لها آخر زجلية كتبها لأجلها، وخيل لها أن ثديها بدأ يتحرك رافضاً الموت، وفي لحظة فاصلة ما بين الوعي والجنون سمعته يقول: سأشفى إن ذهبت إليه وأكلت من يديه ثمار الخرنوب الحلوة وعصافير الغابة المشوية وسأكف عن إيلامك حين تسمعينني آخر زجلياته. وحين عاد إليها وعيها شبه إليها صوت الهاتف بصوت جابر فقررت الاستجابة لنداء ثديها وقلبها، ولكن ما إن خرجت من غرفتها حتى لمعت أزرار نحاسية أمامها وبرقت أمام عينيها النياشين والأوسمة، ثم رأت عادل متجهاً صوبها بوجهه الصارم المتبلد، حاولت أن تهرب منه فدوى صوته الجهوري في البهو يأمرها بنزع ثيابها عن جسدها ثم اعترض طريقها وأعادها إلى الغرفة البيضاء لتهيئ نفسها للعمل الجراحي الذي سيكون بعد ساعة على الأكثر.

السيد قاف

رفع خليل كم سترته الزرقاء ونظر إلى الساعة وكانت حينئذٍ تشير إلى موعد استراحته التي تبدأ في الواحدة تماماً وتستمر حتى الثانية، نظر إلى الظلال فرآها انزاحت قليلاً باتجاه الشرق، عندئذٍ قدر أن تكون ساعته دقيقة كالظلال الزاحفة، حمل زاده وجلس في أسفل الجبل وراح يجفف العرق المتصبب على وجهه من عناء عمل بدأ منذ الساعة الثامنة صباحاً، نظر حوله يراقب الطبيعة في منتصف النهار، رأى طيور الدوري تحمل القش وتصعد إلى جذوع الأشجار الحراجية، ولمح عن بعد أرنباً أبيض يزرق من بين أعشاب الشوفان والهندباء والدرباسية، هبت بعد ذلك نسمة غربية لطيفة أرعشت برودتها اللذيذة

جسده المعروق، مد يده إلى صرة الزاد، فتحها وراح يوزع محتوياتها القليلة على العشب الأخضر، إنه الطعام ذاته الذي يتناوله كل ظهر في لحظات ما قبل قيلولته، وهو عبارة عن بضع حبات زيتون وثلاث كرات لبن مجفف وبيضتين مسلوقتين بالإضافة إلى بصلة يابسة كبيرة كسرها بقبضة يده وراح يقشرها بهدوء فأدمعت رائحتها الحارقة عينيه الصغيرتين، أغلقهما وفتحهما عدة مرات، وأثناء ذلك لمح ما أسماه في طفولته المبكرة السيد قاف. اعتقد خليل أن ما رآه شبّه إليه بذلك السيد وقدر أن يكون ما لمحه ثعلباً أو سنجاباً أو نمساً، خاصة وأن المكان المغطى بالأحراش يغص بمخلوقات يطيب لها أحياناً الخروج من جحورها الصغيرة لتلهو قليلاً أو لتلحق بفريسة مرت من أمامها في لحظات تكون فيها في حالة مراقبة لحياة الحرش في عين الشمس.

مسح خليل الدموع عن عينيه بظاهر كفه وبدأ يتناول طعامه متحاشياً النظر إلى الجهة التي لمح فيها السيد قاف، فهذا المخلوق عدا عن كونه غريب الشكل

في جميع تحولاته فهو يخيفه كثيراً، خاصة وأن حضوره اقترن دائماً بمصائب وأحداث لا تسعد خليل كثيراً، منها أنه ذات غروب وبينما كان يقطع الطريق مرت دراجة نارية من أمامه وسمع سائقها يسبه ويشتمه لأنه كاد يؤذي دراجته الجديدة، يومها رأى خليل السيد قاف مخلوقاً يغطي جسده شعرأحمر يجلس وراء صاحب الدراجة ويرميه بيديه الطويلتين بعيداً عن الطريق، حاول بعدها الوقوف فخانته ساقه اليسرى، عندها علم أنها انكسرت ورأى الدم يسيل من رأسه ومرفقيه.

ـ النظر زلال. قال خليل وهو يحشر في فمه لقيمة خبز فيها قطعة بصل وحبة زيتون، لقد خدعته عيناه بعد أن زلتا ونظرتا إلى الجهة التي لمح فيها السيد قاف، وعاقبهما بأن جعل وجهته إلى الشرق وتركهما تمسحان البحر الأخضر الممتد أمامه، وتابع تناول طعامه، ولكن... اللعنة، هاهو السيد قاف يلهو ويغمز له بعينيه وكأنه يدعوه لأن يشاركه في لعبة الاستغماية، لماذا اتخذ هذه المرة شكل صخرة مستطيلة؟ أغمض خليل عينيه نصف

إغماضة، وقرر أن يعجل في تناول طعامه فراح يدفع لقيماته بسرعة كبيرة متجاهلاً شقاوة السيد قاف ومشاكسته، ولكن، أليس الحذر واجباً عند ظهور هذا السيد الغريب؟ تساءل خليل حين تذكر يوم كان واقفاً في الحيد البحري الضحل وفجأة حوّل النو هدوء البحر إلى جنون ثم خرج صوت من الماء يهيب به أن يترك صنارته ويسبح باتجاه الشاطئ، وحين وصل إلى اليابسة تساءل إن كان الموج من تكلم إليه وساعده في الوصول إلى بر الأمان وقبل أن يجد جواباً لسؤاله رأى السيد قاف وقد اتخذ هذه المرة شكل قرصان بعينٍ واحدة يمتطي موجة مجنونة بعشرات الأذرع.

زاغت نظرات خليل مرة أخرى ورأى السيد قاف صخرةً بأربعة أرجل تقع على طرفيها عينان كبيرتان، أغمض عينيه وراح يعجل في دفع اللقيمات إلى فمه. لكن هذا لم يغير في الأمر كثيراً إذ بدا له السيد قاف خيالاً يروح ويجيء بين الأشجار، ورأى خليل أن خيراً له أن يدور

نصف دورة بحيث تصبح وجهته ناحية أخرى، نقل زاده إلى الغرب وراح يتناول الطعام بهدوء خاصة وأن ما تنقله نظراته فقط هو رفرفات لزرازير ودوري وقرقف تتطاير أمامه وتقترب منه، وتلتقط أذناه زقزقاتها الناعسة وهاهو يرمي إليها بنثرات الخبز الرطبة فتسارع في التقاطها وتعاود طيرانها، ثم فجأة يظهر السيد قاف فيتعكر مزاجه ويتساءل إن كان عليه الهروب من هذا المكان الآمن حد البلادة إلى مكان صاخب، نظر حوله فلم ير وحشاً أو أفعى أو سحلية أو دراجة نارية، كما أن السماء صافية لا أثر فيها لغيم أو برق ورعد، إذن مم يهرب؟ ولا شيء حوله يهدد بالخطر أو يشير إلى احتمال وقوع كارثة أو مصيبة. تذكر يوم تسلق شجرة بلوط كبيرة في القرية ليأخذ منها عشاً لفراخ عصفور الدوري وحين وصل إلى أعلى الشجرة وقرَّبَ رأسه من العش انتفضت أفعى وفتحت فمها لتلدغه فتدخل السيد قاف وخطف الأفعى، نظر خليل بعد ذلك أمامه فرأى نسراً يرتفع بالأفعى المرقطة ويبتعد عن الشجرة، نزل خليل بعد ذلك بهدوء وهو يمسك جذع الشجرة بيديه فيما ساقاه تتنقلان بهدوء إلى أسفل،

وغير بعيد عن الشجرة وقف خليل على الأرض ونظر إلى أعلى ورأى السيد قاف نسراً يرفرف بجناحيه في الفضاء البعيد ثم يختفي.

والآن... عاد خليل يبحث حوله عن وحش يحدق به وينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض عليه، وقدر أن السيد قاف لم يكن يلهو كما كان يظن في البداية بل هو يراقب الوضع ليضرب بنفسه الوحش الرابض في مكان ما، هذا لا يعني أن خليل سعيد بوجوده في مكان عمله، ربما لأنه يذكره بسنواته السبع حين كان يلهو بأعواد ثقاب أشعل بأحدها كومة قشٍ كبيرة ثم راح يرمي فوقها أغصان الأشجار اليابسة فيزداد اشتعال النار ويرتفع لهيبها لتبدو كتنين برتقالي اللون تموج ألسنته في الفضاء، يخرج هذا المشهد خليل عن طوره فيدور حول النار المتوهجة ثم يبدأ الرقص كجني أحمر وبينما الفتى يرقص ويقفز تهب ريح قوية وتحمل معها على غفلةٍ منه جذوة تلقيها على أغصان يابسة فتشتعل على الفور ويعلو لهبها في الغابة،

عندها كف خليل عن الرقص وحمل إلى النار المشتعلة التراب والماء ليطفئها وفقد وعيه أثناء محاولته إطفاء النار للحظات قليلة استيقظ بعدها ليرى إلى جانبه مخلوقاً يشبه الحرف قاف، نظر إليه وسمع أنفاسه المتقطعة وحين حاول الإمساك به تملص منه واختفى، خرج خليل من الأجمة وراح يبحث عن منقذه، وبعد جولات بحث متعددة عاد صفر اليدين وضحك عليه الصبية الذين ساعدوه في إطفاء النار حين سألهم عن منقذ يشبه الحرف قاف، وأخبره أحدهم أنه هرب من النار واختبأ بين أغصان الريحان، وعلى الرغم من ذلك أطلق خليل على منقذه اسم السيد قاف.

عاد خليل يتناول طعامه بهدوء، وحين أتى على آخر لقمة أغمض عينيه ونام، واستيقظ بعد ساعة ليعود إلى عمله في الجبل، ضرب فأسه في صخرة فخرجت من مكانها واهتز كل ما حولها، وقف خليل، نظر حوله فاطمأن، إذ لا شيء يوحي له بالخوف، دحرج الصخرة إلى أسفل وعاد إلى صخرة أخرى يحاول إخراجها، وبعد ست ضربات أزاحها فاهتز الجبل، نظر إلى أعلى فرأى

صخرة ثالثة تتدحرج، اطمأن حين تخيل وحشاً ما قام من الحرش يقترب منه فيما السيد قاف يعجل في السقوط لدهس الوحش ومنعه من التهامه...، ثم... لم يعد خليل يرى شيئاً، لكنه تساءل وهو يعاني سكرات الموت إن كان قد أخطأ هذه المرة حين وقف في درب السيد قاف.

حلم ما بعد منتصف الليل

كانت المدينةُ الصغيرةُ ليلة اقتحمَ نوافذَ بيوتِها صوتٌ رتيبٌ ومخيفٌ كالعادة هادئةً ساكنةً ناعسة، على الرغم من أن غرفَها تبدو للعابرين عامرةً بالضجيج وشرفاتِها الخاليةِ من السهارى جميعها مضاءةً، وهذا ليس بجديدٍ على سكانِها المحدثي التمدن الذين يصرون على خلعِ رداءِ الماضي القريبِ والتنكرِ لطقوسِه الريفيةِ البريئة من خلال اتّباع عاداتِ سكانِ المدنِ، وتقليدِهم في كلِّ ما يقولون ويفعلون، ولذلك تبدو شرفاتُ بيوتِهم قاحلةً جرداءَ لا تزينها زهرةٌ حمراءُ أو صفراءُ أو بيضاءْ، وجدرانُها لا تسترخي عليها ورقةٌ خضراءُ أو جذعُ نبتةٍ متسلقةْ، وهم يتنافسون فيما بينهم في شراءِ اللوحاتِ المخربشةِ بالألوانِ الفاقعةْ ويسمونها لوحاتٍ فنيةً، كما إنهم يصِفون المرايا

الملطخـةَ بالأصـباغِ الرخيـصةِ بالحدائـقِ الـزجاجيةْ، ومـن تـسولُ لـه نفسُه حنينـاً يدفعُهُ لـشراءِ زهـورٍ ورقـيةٍ أو أوراقٍ صـناعيةٍ يـزينُ بهـا إحـدى زوايـا غـرفِهِ فسيـصبحُ بـين لـيلةٍ وضحاها حـديثَ المدينةِ وسـيرددُ الجمـيعُ عبارة (هـه! لمـاذا يـسكنُ هـذا المـريضُ في المديـنةِ مـادامَ يحـنُّ إلى البـيتِ الريفي والحديقةِ المليئةِ بالأزهارِ والأشجار؟)، وبما أن عادةَ النومِ المبكـرِ تنسَبُ إلى أبناءِ الريفِ الذين يمضون سحابةَ نهارِهم في الفلاحةِ والزراعةِ والقطاف فإن المتمدنين الجدد كانـوا يتظاهـرون بـأنهم يـسهرون حتـى الفجـر ولـذلك فهم يتركـون مـصابيحَ غـرفهم وكلوباتِ شرفاتِهم مضاءةً حتى الـصباح كـي لا يقـالَ عـنهم إنهـم كالـرعاة والفلاحـين ينامون بعدَ الغـروبِ بقليل، لكـن، لمـاذا أطفئت المصابيح فجـأة في تلـك اللـيلةِ وأسـدِلَت الـستائرُ علـى عجـل وبـدت المدينة كأنهـا قـد توقفت عـن التقاطِ أنفاسِها؟. قال رجل نـصف نـائمٍ لـزوجتِهِ الـتي كانـت تـشخرْ: أفيقــي، لا تشخري، إنـه بـسطارُ حديدي. هذهِ العبارةُ ردَّدَها الجميعُ، الـساهرون مـنهم والنـيام، وجلـسوا في العـتمةِ ينتظـرون اقترابَ خطواتِ صاحبِ البسطار الحديدي من بيوتهم.

قـامَ فـراس مـن فراشِـه البالـي في تمـامِ الـساعة الثالثة فجـراً، انـتعل جـزمتَهُ البلاسـتيكيةَ ثـم حـرَّكَ قبـضةَ بـابِ

الغرفةِ المهترىء بشكلٍ آلي، فتحه وهو يغمض عينيه، دخلَ في زقاقٍ ضيقٍ وبعد دقائق خرجَ منهَ إلى شارعِ المدينةِ الرئيسي، وجهَتُهُ مطاعمها التي تعرِضُ على واجهاتِها الزجاجيةِ الدجاجَ المحمر. من المنصفِ القولُ أنَّ الفتى لم ينتبهْ لوقعِ خطواتِه على إسفلتِ الطرقاتِ الخاليةِ من السيارات أو حتى الدراجاتِ الناريةِ والعاديةْ، ليس فقط لأنه نائمٌ، بل لأن رأسَه في تلكَ اللحظاتِ كان مشغولاً بأمنيةِ أمِهِ التي جاءتْ به قبل شهرٍ من تلكَ الليلةِ إلى المدينةِ من أجلِ العمل، وكانت الخطوةُ الأولى في طريقِ تحقيقِ الأمنيةِ هو الحلم الذي راودَهُ في تلك الليلة، ولو رآه أحدُ الفضوليين يسيرُ وهو نائم لانتبه إلى أصابعِهِ التي تقبضُ على راحةِ كفِّهِ، لكن، هل سيقدرٍ ذلك الفضوليُ كنزَ الفتى الثمين؟

تابعَ فراسُ سيرَه في الشارعِ الرئيسي غير عابئ بالمدينةِ التي تحولتْ إلى ليلٍ حالكِ السواد، تارةً يسيرُ في وسطِ الطريق وتارةً على الرصيف ولم يكن يبدو في عجلةٍ من أمرِهِ، فأمُّهُ وطبقاً للحلمِ جالسةٌ على المصطبة الحجرية تنتظرُهُ عائداً بالدجاجةِ المحمرة، وبما أن النقودَ صارت في يده فإن انتظارَها سيجدي هذه المرة، هذا ما كان فراس يحدثُ نفسَهُ به وهو نائمٌ، لكنْ، من أينَ أتتهُ النقود؟ لقد

بدأ حلمُهُ حين رأى نفسَهُ تاجراً متنقلاً في شوارعِ المدينةِ يبيعُ فيها القبعاتِ الشتوية للمتسوقين وينادي ملءَ صوتِه داعياً جميعَ العابرين من أبناءِ الريفِ والعمالِ وطلبةِ المدارسِ لشرائِها، كان يطيِّرُ القبعاتِ الصوفيةَ في الهواءِ فتتطايرُ كرؤوسٍ حمرٍ و خضرٍ وصفرٍ وبيضٍ، ويصيحُ: رأسٌ أبيض، رأس أحمر، رأس أصفر، رأس أسود ويراها تحطُّ على الرؤوسِ الملونةِ ويضعُ المشترون ثمنَ القبعاتِ في سلةِ القصبِ الصفراء.

حلُمَ فراس بأنهُ عادَ إلى المنزل في نهايةِ النهار بسلةٍ مليئةٍ بالنقودِ وضعها أمامَ أمهِ وأخبرَها بأنهُ سيحققُ لها أمنيتَها وسيشتري لها أكبرَ دجاجةٍ محمرةٍ في مطاعمِ الوجباتِ السريعة، وقبلَ أن تسألَهُ عن مصدرِ النقودِ التي تملأُ السلة التقطَ منها مئتين، ثلاث، أربع وربما أكثر ثم خرج، وهاهو يصل إلى أول مطعمٍ تقودُهُ إليه بصيرتُهُ المتحفزة، وفرحَتهُ بنقودٍ يقبضُ عليها وسيحققُ بها حلمَ أمهِ، إنه المطعم ذاته الذي كانَ يقفُ أمامَ واجهته معها أثناءَ بحثِهما عن عملٍ يقتاتان منه بعد أن عجزتْ حاكورتُهما الصغيرةُ عن إطعامِهما، يصعدُ فراس الدرجاتِ الرخاميةَ الثلاثْ ثم يقفُ على الدرجةِ الرابعةِ، يبحثُ بأصابعِهِ المطويةِ والمفتوحةِ عن قبضةِ البابِ فلا

يجدُها ، يدفعُ بيديهِ ما يظنُهُ باباً زجاجياً ، ثم يمررُ أصابعَ يده اليمنى على البابِ الحديدي ، وحين لا يعثُرُ على مدخلٍ يوصله إلى المطعم ينامُ على درجتهِ الرخامية الثالثة ، ويتابعُ حلمَهُ الشهي ، فيرى نفسَهُ واقفاً أمامِ صبي المطعم ، يقتربُ منهُ ويدفعُ إليه بالنقودِ ويتوجهانِ معاً إلى الشواية ، ينظرُ إلى الدجاجاتِ المحمرةِ وهي تدورُ على الأسياخِ والنارُ تحرقُها من كلِّ الجوانبِ فينزُّ منها الدهنُ والشحمُ ، يسيلُ لعابُ فراس عند رؤية المنظر ، يصبحُ في حيرةٍ من أمرِه وهو يبحثُ عن أكبرِ دجاجةٍ محمرة ، إذ إن الدجاجةَ وهي تدورُ على السيخِ تبدو كبيرةً حين يظهرُ منها صدرُها لكن حين تديرُ لهُ ظهرَها تصبحُ أصغرَ من الدجاجاتِ المحمراتِ اللواتي تظهرُ صدورَهُنَّ فقط ، وقد سببَ له هذا التبدلُ بعضَ الإرباك ، والحالُ هذه كان عليه أن يسألَ صبيَ المطعمِ إن كانت الدجاجاتُ جميعُها متساويةً في الوزن؟ وقبل أن يجيبَهُ الصبيُ على السؤالِ يطلبُ فراس منه أن يخرجَ له من الشوايةِ أكبرَ دجاجةٍ محمرة ، وعلى الرغم من أنهن متساوياتٌ في الوزنِ والحجمِ إلا أن صبيَ المطعمِ يسحبُ من الشوايةِ دجاجةً محمرة على أنها أكبرُ من الأخريات ويطلب من فراس مبلغاً إضافياً فيدفعه الفتى بكل رضى وقبل أن يخرجَ من المطعم يقررُ أن يخبرَ أمَه

بـأن الدجاجـةَ الـتي اشـتراها هـي أكـبرُ دجاجـةٍ محمـرةٍ في السوق.

حلُمَ فراس بأنه جالسٌ مع أمه على المصطبة الحجرية يتناولان الدجاجةَ المحمـرة، ورأى نفسَهُ يقـرمشُ جلدَها ذا اللـون القـرميدي ويلحـسُ عـن أصـابعِهِ الـدهنَ والـشحم، وسمـعَ أمـه تـباركُه وتمطُـره بالأدعـيةِ كـي يـوفقَهُ اللّه في عملِهِ الجديد وتتمنـى لـه أن يحملَ كلَ يومٍ سلةً من النقودِ ودجاجـةً محمـرةً و...، اسـتيقظ الفتـى في الـسابعةِ صـباحاً علـى صوتِ فتى المطعمِ يسبُّه ويشتمُهُ، ثم يمسكُهُ بكتفِهِ ويـرميهِ بعيداً، وحـين فتحَ فـراسُ عينيهِ ونظرَ حولَهُ تذكَّرَ أن عـادةَ السيرِ وهو نائم هي التي أتتْ به إلى هذا المكان، وكثـرتْ هـذه العادةُ بعد وفاةِ والدتِهِ، وعلمَ سكـانُ المدينةِ في اليوم التالـي أن الصوتَ الذي دفعهم لإطفاءِ أنوارِ بيوتهم قـد شُـبِّهَ لهـم فهـو لـيسَ بـسطاراً حديـدياً يـنوي صـاحبُهُ إعـادتهم إلى قـراهُم الفقـيرة، إنه بكلِ بساطةٍ وقعُ تنقلاتِ جـزمةِ فـراس علـى إسـفلتِ مدينـتهم الـصغيرةِ ومـع تكـرارِ الصوتِ اكتسبَ محدثي التمدنِ مناعةً ضدَّ الخوفِ والقلقِ واستمروا في ممارسةِ تمدنهم.

حكاية سعيدة

منـزل الأرملـة العاشـقة لـيس بعـيداً ، لكـن ثمـة زمـن كانـت فيه بيوت الفقراء بعيدة والحكايات سعيدة ، تنعي الأرملـة العاشقة زمناً مضى فتقول: كانت أيامنا حلوة على الـرغم مـن الفقـر ، الآن ذهـبت الأيـام الحلـوة وظـل الفقـر. يتساءل العجـوز العائد من المرعى عن الكوخ ويضيف: هل يتكاثـر الـضباب؟ حـين كنت شاباً كان الضباب معدوماً أو خفـيفاً ، الآن تكاثـف كغـيمة تحجـب عـني كـوخاً أسـكنه مـع حفيدتـي وتلك الشيطانة ، على كل حال ليس هـناك مـا يستدعي الخوف ، رسـن العنـزة بيدي وستقودني كالعـادة إلى المنـزل. إنـه زمـن ضبابي يشبِّح الكبار ويبتلع الـصغار ، زمـن يقيد الأرملة ويخيف الطفلة ، ويجعل الشيخ يشعر بالوحشة.

ـ أمي، احكي لي حكاية.

يشرق وجه الأرملة وتبحث في ذاكرتها عن حكاية تعيد لطفلتها الأمان فلا تجد، تبكي الطفلة وتطلب حكاية سعيدة، تربت الأم على جسد الصغيرة وتطلق نظرها عبر النافذة باتجاه الظلمة الشديدة: كان يا ما كان في قديم الزمان.....

التقاه في زاروب العين، قال له: إيه يا حمدان، الدنيا تغيرت وأنت ما زلت مع عكازك وعنزتك في المرعى.

ـ صحيح يا عباس، وهذه عادة متأصلة، الزهد في الدنيا من صفات الصالحين.

ـ هذا كلام أكل الزمان عليه وشرب.

ـ لا، أنت مخطئ، إنه صالح لكل زمان ومكان.

ـ وما قولك بـ: إِسعى يا عبدي أسعى معكْ؟

يصمت حمدان ويتجاهل ثرثرة محدَّثي النعمة الذين غيروا جلودهم ونجسوا أمعاءهم بالدهون والخمور واستبدلوا بثواب الآخرة ذهب الدنيا.

تهز تمرة رأسها وتقول: عباس على حق، الناس غاصت في عسل الدنيا وملذاتها ونحن لم نلمس وجهها. يهز الشيخ رأسه ويقول في سره: ما عاد باليد حيلة، أنت

أرملة وأنا عجوز وابنتك ضلع قاصر، آخ لو أنك أنجبت صبياً! كان أعطانا أملاً بأن نلحسَ العسل ونذوق بالملذات، أما وأنك أنجبت هذه القردة الصغيرة فالفقر سيظل قدر هذه العائلة المنقرضة.

يكش العجوز حفيدته كما يكشُّ الذباب والبعوض عن جسده الضئيل، لكنَّه في المساء وبعد أن تحلب العنزة يناولها كأس حليب، ولا ينسى ضيفته الهرة، تحمل ربا كأس الحليب وتجلس في زاوية الكوخ تقرأ دروسها وتكتب وظائفها، وقبل أن تغفو تقص عليها تمرة حكاية (عليا والنبع)، حكاية ربا المفضلة والتي تنتهي بقتل الوحش واختفاء النبع.

ترتسم على وجه ربا ابتسامة طفولية عذبة وتغفو، تخرج تمرة من الكوخ على رؤوس أصابعها لتلتقي بسمير، تطمئنه وتقول له: البنت مثل المزبلة تكبر بسرعة.

حين كبرت ربا أصبحت مدرستها بعيدة، وسمعت حكاية جديدة، حكاية تحدث كل عام مرة على الأقل، الحكاية التي سمعتها لا تنتهي عندما يقتل الوحش بصخرة عليا. حفظت ربا الحكاية الجديدة وقصَّتها على تمرة فلم تستغرب الأم الحكاية لأنها تعرفها، سألتها: لماذا لم تحكيها لي؟

ـ لأنها تحدث كثيراً. والحقائق لا تصبح حكايات لأن أشخاصها نعرفهم وبيوتهم يعرفها الجميع. ثم تعدد تمرة أسماء الفتيات اللواتي اختارتهن المصادفة وأصبحن زوجات أثرياء.

وعلى الرغم من ذلك جعلت ربا من نفسها بطلة لحكاية سعيدة وجديدة، فصارت تمشي على الطريق العام، تكحل عينيها وتلون خديها، تفلت شعرها وتراقب سائقي السيارات الفخمة والقاطرات الضخمة، وحين تصل إلى البيت تنتظر أن يطرق أحدهم باب الكوخ، صارت الحكاية حلم يقظة جميلاً تستحضره ربا حين تسمع شكوى أمها وشتائم جدها فتتساءل بينها وبين نفسها: متى سيأتي؟ أحياناً تقوم من نومها وتؤكد أنها سمعت طرقاً على باب الكوخ وحين لا يتكرر الصوت تستلقي على وسادتها وتستعيد الحكاية التي تقول: ثمة فتاة فقيرة (ليلى، خديجة، فاطمة، مريم) كانت تمر على الطريق التي تقسم القرية الصغيرة إلى قسمين، وذات مرة رآها ثري مر بالصدفة عابراً بسيارته على الطريق التي تصل الساحل بالداخل، لحق بها حتى رآها تدخل باب بيت أهلها، في اليوم التالي طلب يدها وأهداها طوقاً وقرطاً وأساور ودفع لأهلها مهراً وبنى لها بيتاً كبيراً، وبعد أعوام قليلة صار أهلها من الأثرياء وإخوتها من أبناء هذا الزمان.

شعرت تمرة بالإحباط، لأن الطريق لم ترمي لابنتها بعريس، والضباب منع شبان القرية من رؤية ربا، خافت تمرة من الانتظار واعتقدت أن القدر ما زال يحاربها، أخذ رجلها الأول شاباً وهاهو يمنع الشبان من طلب يد ابنتها. وسمير هو الآخر مستعجل ويريد تمرة لنفسه لا يقاسمه فيها أحد حتى ربا.

وذات مساء وقبل أن تنام ربا وتجتر حلم اليقظة طُرِقَ الباب، فتحته الأرملة وكان أمامها رجلان، سمير وآخر اسمه طارق، دخل الرجلان إلى الكوخ الحقير، جلسا على بساط مهترئ، هتفت ربا: هاهو الحلم يتحقق، إنه الثري. شردت ربا واستعادت ذكرياتها القريبة فلم تجد فيها سيارة تلحق بها، همست: كل من رأيتهم لم يلحقوا بي وهذا أظنه رآني ولحق بي ولم أره وهذا أفضل. نظرت إلى تمرة فرأتها سعيدة وهي تتحدث إلى الثري المتواضع، همست: الحمد لله هاهي المصادفة تغير قدر هذه العائلة المنحوسة.

عاد سمير يؤكد أن الثري المنتظر يريد ربا زوجة، إذن لا مجال للشك، خرجت تمرة تستدعي حماها، فالكلمة الفصل في أمر كهذا هو للرجال.

كـان حمـدان مـا زال يـتلمظ حـلاوة الـشاي، حمـل عكـازه وجـرى مـسرعاً يـستقبل الثـري ويوافـق فـوراً علـى زواجـه مـن حفيدته، ثم تنفس الصعداء وحمد الله كثيراً، فهاهـي الطـريق ترسـل لهـم شـاباً ثـرياً. في تلك الليلة تألقت تمرة وهمس سمير في أذنها: زواجنا سيكون بعد زواج ربا.

أمـا حمـدان فقـد اسـتقام ظهـره واسـتطال جسده حتى صـار يـنحني أثـناء دخـوله وخـروجه مـن الكـوخ وإلـيه، وارتقـى الـسلم بـسرعة كـبيرة وصـار يجـالس رفاقـه ممـن كـان يـسميهم محدثـي الـنعمة، ويحـدثهم عـن ذهـب أربعـة وعـشرين قيراطـاً وأونـصات ذهـب وطـوق وقـرط وأسـاور، ثم تحـدث عـن مهـر غـال سيدفع وقال إنه يجهل أسماء أصناف الطعـام الـتي يتناولها: (آخ، الأسـنان ذهبت، وظننت أني لن أحـتاجها، آخ لـو كـنت أعـرف أن أيامـاً كهـذه تنتظرنـي لحافظـت علـيها ومـا اقتلعـتها بالكماشـة)، ثـم اسـتبدل القمباز والعمامـة ببنطالٍ وقميصٍ وطاقية، وسمى العجائز الأغنـياء جماعـته، والفقـراء مـنهم زاهـدين أغبـياء لم يحـسنوا اسـتغلال الفـرص، وسمعـه الآخـرون وهـو يـردد: الحمـد لله كـبرت ربـا، الحمـد لله أنهـا أنثى. صار حمدان يحـب الحـياة ويـتحايل علـيها، فـثمة أيـام سـعيدة ومـريحة اعتقد أنها تنتظره، أيام لا تعب فيها ولا هم ولا فقر، كم

ندم حمدان لاستعجاله النهاية السعيدة واستسلامه للزهد ولحقيقة تقول هنيئاً لمن أتى إلى هذه الدنيا وأثبت وجوده فيها بلا ذنوب.

سألت تمرة ابنتها: إلى أين؟

ـ إلى المدرسة.

ـ لماذا والطريق أرسلت إليك ثرياً.

تذكرت ربا الحكاية القديمة (حكاية عليا والنبع) التي تقول: أتى وحش غريب إلى غابة القرية، استقر في كهف، وبعد أيام من وجوده في الكهف صار يراقب الطريق التي تفضي إلى النبع، رأى فتاة تحمل الجرة، كانت الفتاة جميلة، كمن لها في أجمة، راقبها وهي عائدة إلى البيت، وذات يوم اعترض طريقها وسألها: إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ إلى النبع.

ـ أي نبع؟ أتقصدين النبع الذي لا طعم لمائه؟

ـ هل يوجد ماء له طعم؟

ـــ عندي، وأشار إلى الكوخ، عندي ماء طعمه كالعسل.

وقفت عليا حائرة، هل تصدقه؟ كلا، الماء لا طعم له.

ـ ما بك ، ألا تصدقين؟ هاتي الجرة وسترين.

ناولت عليا جرتها الفخارية للوحش المسالم، خطفها وغاب دقائق عاد بالجرة، حملتها ودفعها الفضول للتوقف في وسط الطريق وتذوق ماء الجرة، تلمظت طعمها وهتفت: طعمها كالعسل، لن أخبر أحداً ولن أحمل بعد اليوم ماء من نبع عين الوادي. وهكذا صارت عليا تأتي كل يوم إلى الوحش تناوله جرتها ويعيدها إليها مليئة بالمياه الحلوة، وكلما سألها والدها عن طعم الماء الجديد تهز كتفيها وتقول إنه من النبع نفسه.

واستمر الوضع على هذه الحال إلى أن أتى يوم وصلت فيه إلى الأجمة، وهو المكان الذي ينتظرها فيه الوحش، نادته فلم يجب، قالت: لا بد أنه في رحلة صيد، سارت باتجاه الكهف، طرقت بابه، لا مجيب، دخلت لتملأ الجرة، فالوحش قال لها: حين لا أكون في الأجمة ادخلي إلى الكهف واملئي الجرة من البرميل، حين بدأت بملء الجرة رأته أمامها، فتح فمه واستطالت أظافره وأنشبها بكتفيها الناعمتين، دافعت عن نفسها إذ ضربت رأسه بالجرة فقتلته، نظرت حولها، الجرة مكسورة والوحش

مقتول ويداها ملوثتان بالدم، اندفعت خارج الكهف، إلى أين؟ كانت الغابة أمامها واسعة وكثيفة، ركضت في أدغالها بلا هدف، بعد تعب وإرهاق وصلت إلى المكان الذي يتدفق فيه النبع، بحثت عن قطرة ماء تشربها، لا أثر له، لا شيء إلا الطحالب والأعشاب، وشمت رائحة قذرة، وقدرت أن يكون النبع قد غار في الوادي.

حملت ربا كتبها وذهبت إلى المدرسة وعلى الطريق عادت إلى حكاية عليا والنبع، تساءلت: لماذا لم تبحث عليا عن النبع؟ لماذا لم تنظفه من الطحالب والأوساخ؟

تخيلت ربا الوادي الذي غارت فيه مياه النبع مكاناً مليئاً بالأعشاب والطحالب والزواحف والوحوش التي تشرب مياهه القذرة وتلقي فيه فضلاتها وبقايا فرائسها، تذكرت ربا خطيبها الثري وتساءلت عن سبب تذكره، تحسست القرط والأساور، أخذها من شرودها رنين الجرس، دخلت إلى الفصل وبعد أسبوع كان موعد الزفاف، فضل العريس أن يتم كل شيء بصمت، أخذ العروس بسيارته، لا حفل زفاف ولا مدعوين، تماماً كما زفت من قبل بطلات الحكايات السعيدة، سأل حمدان عن المهر فوعده العريس بأنه سيكون بين يديه في زيارة العريسين الأولى، أي بعد أسبوع.

قبل أسبوعٍ كانت ربا في الكوخ تتحدث لأمِّها عن طارق، الشاب الثري الحلم، وكيف أنها ضربته بسكين وقتلته ثم هربت منه، وغداً ستعود إلى المدرسة.

أرغى الجد وأزبد، لقد باع العنزة فمن سيعيده إلى البيت ويطعمه؟

خطف بريق الطوق والأساور نظره الضعيف، وبعد مشادة كلامية عنيفة أوضح حمدان خلالها لتمرة أنه صاحب الحق في الطوق والأساور والقرط.

تخلت ربا عن ذهبها، حمله وذهب إلى المدينة وهو يقول: هذا هو مهرها، وسيضمن لي الجلوس مع الأغنياء والميسورين، حين يرون النقود لن يطردوني من مجلسهم. ولكن العجوز عاد بلا مهر ولا معزاة، وطيَّب السباك خاطره فأعطاه نقوداً تكفي لإيصاله إلى بيته وحمله الذهب المزيف أو ما كان يظنه (أبو 24 قيراط)، وحين وصل إلى البيت أخبرته تمرة بنهاية ربا: لقد جرى القبض عليها وتم إيداعها في السجن.

حاصد الخطيئة

كان يشك بأبوته لأصغر أبنائه تماماً كما يشك بأمومة زوجته لها، ولذلك وهبها لشيخ جليل ألمح أمامه إلى أنه يحتاج إلى امرأة عجوز تؤمن له حاجاته الضرورية وتهتم بطفليه الذين فقدا أمهما قبل أن يبلغ أكبرهما الخامسة، في حين يبلغ عمر الصغير ثلاث سنوات تقريباً، ثم أخبر عبد الرحمن مضيفه بأنه حلف يميناً لن يحنث به ولو أدى ذلك إلى موته.

لم يكن شك سعود بأبوته ناتجاً عن سلوك مشين أقدمت عليه زوجته لا سمح الله خاصة أن عيني أمل كعينيه تماماً وقامتها المحنية تؤكد أنها نسخة مؤنثة عن والدها، لكن كيف ينجب طفلة معتوهة؟ ومن أين؟ ولماذا؟ هذه الأسئلة كانت سياطاً تجلد سعود وتدميه على

الرغم من أنه استسلم لحقيقةٍ تقول إن الرغبة الجنسية هي طاقة شيطانية تراود الإنسان بين الفينة والأخرى، ويعترف أنه ذات ليلة استسلم لشعور اللذة الخالصة وتناغمت زوجته سلمى معه حين عبرت في تلك الليلة عن نشوتها بتأوهات شيطانية قدر أن تكون تداعياتها قد وصلت إلى غرفة الأولاد وربما سمعها بعضهم خاصة من كان منهم ساهراً وادعى سعود أنه سمع في تلك اللحظات الشيطانية صوتاً يئز في أذنيه كأزيز الدبابير أمام وكرها فهم منه أن الشيطان سيكون شريكاً في الولد الذي ستنجبه سلمى.

سأله الشيخ الجليل عما فعله وهو يسمع صوت تأوه زوجته فأجابه سعود بلهجة حازمة: وماذا علي أن أفعل؟ لقد ضربتها حتى خرج منها ذلك الشعور الخبيث.

أجابه الشيخ بوقار: فعلت خيراً. وقبل أن يعلن قبوله للهدية أو قبوله بثمرة الخطيئة خادمة في بيته البعيد، استمع عبد الرحمن باهتمام شديد إلى تعليمات سعود التي تتعلق بالطريقة المثالية للتعامل مع أمل، فمثلاً حذره من شتمها بصوت عال لأنها سترد له الصاع صاعين كما أن رفع العصا في وجهها على سبيل التهديد ستكون نتيجته ضربات مجنونة سيتلقاها حتى الإدماء، وعليه ألا يسمعها

تسابيحه ودعواته المسجوعة لأنها ستتهمه بالجنون، أما إذا نظر إليها نظرة تنم عن احتقار لها فستقول له: أنت أقل من حشرة لأنك تسرق الناس ببضع كلمات، بينما هي تأكل لقمتها بعرق جبينها و.... ماذا أفعل؟ إنها ثمرة رغبة ملعونة! و.....

ـــ كفى، قال الشيخ الجليل لمضيفه وهو يشير بإصبعه ثم أضاف: عرفت دواءها فلا تقلق.

سارت أمل وراء سيدها بحذر شديد، وحذرها هذا كان ناتجاً عن خوفها من وحشة الطريق لأن هذه المّرة هي الأولى التي تخرج فيها من البيت ولا علاقة لما قدره سيدها في ذلك النهار الحار من أنها خائفة منه ومن حجم المهمة الموكلة إليها، ولو كان على معرفة حقيقية بأمل لعلم بأنها سعيدة ما دام عملها ينحصر في تقديم خدمات للآخرين بشرط ألا يرميها مخدومها بكلمة نابية أو نظرة احتقار كما كان يفعل والداها أحياناً أو إخوتها. باختصار لقد وجدت أمل نفسها خادمة وقبل أن تكتشف موهبتها هذه كانت شرسة ومؤذية وفي بيت سيدها الجليل وبعد يومٍ واحدٍ من الخدمة شعرت بأن البيت الجديد قدرها الذي كانت تنتظره مذ ولدت وتأقلمت على الفور

مع ولديه، وكان الشيخ من القلائل الذين ينادون بشعار الرفق بالحيوان، حتى ليقال أنه لم يضرب حيواناً ولم يسجنه أو يجوِّعه، وكانوا يسمعونه يتحدث إلى الحيوانات كما لو أنها مخلوقات عاقلة، وعامل أمل على المبدأ ذاته، الرفق بامرأة خلقت لتكون خادمة تحسن استعمال قوتها الجسدية لكنها عاجزة عن استعمال حكمتها وصبرها.

ليس مهماً الدخول في تفاصيل حياة بيت الشيخ عبد الرحمن بعد أن استلمت أمل خدمته، لكن، يمكن الحكم على حياة سكان ذلك البيت الريفي بأن كل شيء فيه يسير على ما يرام: تستيقظ أمل في الصباح الباكر، تحلب البقرة البلدية الرمادية، تسخن الحليب ثم تملأ من القدر الكبير إبريقاً لسيدها وتحمله إليه مع أصناف الطعام الأخرى في طبق من القش، وحين يكتفي من الطعام تعيد الطبق إلى غرفة الولدين تتقاسم معهما ما تبقى في الصحون الفخارية وإبريق الحليب، بعد ذلك تنطلق أمل إلى أعمال البيت المتنوعة، أما عن أجر خدمتها فكان طعاماً هو من بقايا وجبةٍ أعدتها لسيدها وكأساً أو كأسين من الحليب أو الشاي، وقطعة قماش يقدمها

لها الشيخ عبد الرحمن في العيدين الكبير والصغير، وهذا الترف بالإضافة إلى المعاملة الجيدة جعلاها لا تفكر بزيارة أهلها حيث الأعمال متنوعة ومجهدة والأجر فتات خبز وشاي باردة ومرة.

لم تستمر الحياة في بيت الشيخ عبد الرحمن على الوتيرة ذاتها فترةٍ طويلة، ثمة تغير طرأ على سلوك أمل، إذ صارت يوماً بعد يوم تزداد عصبية وتصرخ في وجه الولدين رباح وسماح وأحياناً كانت تضربهما وتطردهما، ولاحظ سيدها أنها صارت تهمل أعمال البيت المتنوعة خاصة إعداد الطعام وحلب البقرة، ودفعه هذا الإهمال إلى لفت نظرها بطريقة لطيفة جداً، وعزا إهمالها بينه وبين نفسه إلى السمنة التي طالت جميع أنحاء جسدها، بعد أن كانت يوم وصولها إلى بيته نحيلة وشاحبة.

ـ إنه الخير الوفير. قال في سره، ولكي يرى والدها هذا الخير سألها إن كانت ترغب بزيارة أهلها، فردت عليه وهي تديرظهرها إليه: إن الخدمة هنا أفضل والطعام أوفر والشاي أسخن وأكثر حلاوة، لأنها هي من يوزع الطعام والشاي، وهناك في بيت أهلها وعلى الرغم من خدمتها المتواصلة لا تنال ما يكفيها أو ما يقيتها لأن أمها

هـي الـتي تـوزع الطعـام وتطـبخ الـشاي. لقـد أسـعده ردهـا واطمـأن إلى بقائها في خدمته ربما مدى الحياة، لكن هذا لم يمنعه من دعوة سعود لزيارته لأن الأخير كغيره من أبناء الريف، وبسبب غياب وسائل النقل الحديثة يفضل تناسي أبنائه الذين يخرجون من القرية على زيارتهم والتواصل معهم خاصة حين يتقدم بهم العمر، فمخاطر الطريق أكثر من أن تحصى ودواب الركوب لا طاقة لها على قطع المسافات الطويلة والطرق المتعرجة.

أرسل الناسك عبد الرحمن قريباً له مع دابتين قويتين ستكون إحداهما لحمل سعود إلى بيته على أن يقيم عنده ضيفاً أسبوعاً كاملاً أو أكثر إن رغب، ولم يكن سعود غبياً ليرفض دعوة كهذه. وبعد يومين كان في بيت صديقه، وأسعده أن يرى ابنته المجنونة والنحيلة هادئة وسمينة وملفوفة بثوب جديد، مثل كيس مليء بالتبن، وأشار إلى أن هذه السمنة قد تعيقها يوماً عن خدمة الناسك والعناية بولديه، لكن المضيف الكريم أشار إلى بقرته الصفراء السمينة وهي في الحاكورة تقضم العشب وقال لضيفه: من يحرم أمل مما تشتهيه كمن يحرم هذه البهيمة من كلئها.

أعجب سعود بهذا التشبيه لأنه يصيب كبد الحقيقة، إذ لا فرق بين من فقد عقله وبين البهيمة.

بعد أسبوع استأذن والد أمل من مضيفه ليسمح له بالعودة إلى ضيعته بعد أن شكره على حسن ضيافته له وأثنى على كرمه الذي يغدقه على ابنته المجنونة، كما فوجئ بقدرته على ترويضها وجعلها هادئة ومطيعة، وحين طلب منها سيدها الخروج لتوديع والدها اشترطت عليه ألا يدعه يأخذها معه إلى البيت، طمأنها الناسك بهدوء، وشعر بينه وبين نفسه بأنه يحرز نصراً جديداً بعرضها أمام سعود للمرة الأخيرة، فهذا سيخبر كل من يلتقي به بما رآه في بيته وبذلك ينال عبد الرحمن سمعة طيبة يلبسها الناس حكايا تعمر جلساتهم الطويلة وتشعرهم بنشوة الإيمان، وفي الحقيقة: لقد اكتشف الناسك أنه بدأ يتغير، فمتى كان يطمح لأن يكون معروفاً تتناقل الناس فيما بينها حكايا عن كرمه وحسن معاملته؟.

ما حدث بعد شهر طرح سؤالاً آخر يتعلق بأمل، هل تحبل المرأة المجنونة؟ سأل عبد الرحمن نفسه وحين رأى بطن أمل يكبر بسرعة كبيرة شعر بندمٍ كبير وزاد ندمه حين سمع صراخها في الغرفة التي تتقاسمها مع ولديه.

كان ذلك في ليلة شتائية باردة، انتفض عبد الرحمن من نومه فزعاً من قوة الصوت ثم قام من سريره الحديدي، أشعل الفانوس ودخل ليرى أمل على وشك وضع مولودها، أشار لصغيريه بالخروج فهرعا إلى عشهما البري الذي اعتادا الجلوس فيه أو النوم بين أحضانه أحياناً بعد قدوم أمل إلى البيت بشهر تقريباً.

حدثت الولادة ودفنت ثمرة الخطيئة في حاكورة ملاصقة للبيت قبل طلوع الفجر ومحيت كل الآثار وكأن شيئاً لم يحدث، ولعن عبد الرحمن في تلك الليلة الخادمة المجنونة بصوت خفيض عدة مرات، ولم يتوقف عن لعنها في الأيام القادمة لأنها أغوته قبل أقل من عام وذلك حين كانت تنظف غرفته وتلوح أمامه بمؤخرتها المكتنزة. همس في تلك الليلة وهو يرى طفليه يرتجفان وهما يدخلان البيت بعد أن قضيا ليلتهما بين أحضان الريحانة: المرأة شيطان حين تكون في كامل عقلها فما هو الحال وهي مجنونة؟ ولكن، ضرب الناسك رأسه حين تذكر أنه طردهما كي لا يريا أمل وهي تلد. أين ذهبا؟ أو لماذا لم يلجأا إلى الصومعة؟!

لم تكن هذه المرة هي الأولى التي ينام فيها رباح وسماح خارج البيت، فالناسك عبد الرحمن صار يرى في أمل بعض ما ملكت أيمانه، لكنه في الوقت ذاته كان حريصاً على سرية علاقته بها فوضع برنامجاً حدد بموجبه وقتاً تدخل فيه إلى غرفته من أجل تنظيفها وطلب منها أن تعمد إلى حيلة ما تخرج بها الصغيرين من البيت ريثما تنتهي من تنظيف الغرفة ويوماً بعد يوم حفظت أمل البرنامج فصارت ترسل الطفلين للتسكع في زواريب القرية ثم تدخل إلى غرفة سيدها تنظفها وتنتظر أن يطلب منها ترك عملها والاستلقاء على فراشه لأنه يريدها لأمر هام، وما كانت لترفض طلبه فهو على الأقل يؤمن لجسدها بعض الراحة على فراش وثير من تعب نهار كامل تقضيه في أعمال شتى، واللافت أن الصغيرين انصاعا لبرنامج الناسك عبد الرحمن عن طيب خاطر، فما أن يظلم فضاء دير الهوى حتى يخرجا للسير في زواريبها وحاراتها، وأحياناً يعودان إلى البيت في وقت متأخر ليجدا غرفة أمل مظلمة ومقفلة وكذلك غرفة والدهما، عند ذلك يقصدان الريحانة القريبة من المقبرة وينامان في حضنها ويعودان عند الفجر إلى الغرفة بينما أمل وأبوهما يغطان في نوم عميق.

ـ المرأة مصيبة منذ قابيل وهابيل وحتى هذا اليوم وإلى آخر الزمان. ردد عبد الرحمن وهو يرى أمل تبدو كالميتة بعد ليلة قضتها في المخاض والولادة، لولم تكن مجنونة لقتلها واستراح منها، ثم من سيقوم بخدمته والعناية بصغيريه؟ فكر عبد الرحمن وحمد الله أن خادمته مجنونة ولن يأخذ عاقل بكلامها ولذلك فهو في مأمن من شائعة تسري بين الناس.

مج نفساً عميقاً وأغلق الباب عليها وقام بنفسه منذ الفجر بأعمال البيت المختلفة فتناول الطعام مع صغيريه بجانب المدفأة ولم يخطر في باله أن يسألهما عن المكان الذي قضيا فيه ليلتهما الباردة!.

عادت الحياة بعد أن تماثلت أمل للشفاء إلى برنامج الناسك ولم يعد يخيفه ما حدث لأمل وما فعله بجنينها بسبب هذا البرنامج: لتحبل وتلد كل عام فالحاكورة تتسع لعشرات الأجساد الصغيرة. هكذا صار الناسك يفكر بعد أن دفن الجسد البريء إذ فضل التخلص من مخلوق بريء على الفضيحة المدوية التي ستنسف صومعته الطينية، وكان حريصاً على إبعاد ولديه عن رؤية ما يحدث في غرفته حين يكون مع أمل بين جدرانها وهذا ما

دفع الصغيرين إلى صنع سرير يتسع لجسديهما في قلب الريحانة، فرشاه بعد ذلك بالتبن وصارا يتدثران بأغطية من ألبسة بالية وجداها بين أغصان أشجار العوسج والبلان المنتشرة على أطراف القرية، لقد أدمت الأشواك جسديهما، لكن لاضير من الإدماء والألم طالما سيشعران ببعض الدفء، فالبيت لم يعد لهما إلا في النهار وجزءاً يسيراً من الليل، وحضن الريحانة فراشهما الدافئ.

وذات ليلة انخفضت فيها درجة الحرارة إلى درجة التجمد، خرجت أمل من غرفة الناسك في وقتٍ متأخر من الليل ولجأت إلى غرفتها، ارتمت على فراشها ولفت جسدها بالغطاء، وعند الصباح نظرت إلى سرير الصغيرين فلم تجدهما واكتشفت فيما بعد أن الجليد الذي جمد كل شيء في الخارج لم يستثن جسدي رباح وسماح ولم تنفع نيران مدفأة الحطب في إعادتهما إلى الحياة. هكذا ببساطة تجمدا ولم يدفئهما التبن المتجمد ولا قطع القماش البالية، وأخبرت أمل سيدها أن طفليه صارا يخرجان من البيت من غير أن تطردهما كل ليلة قبل دخولها إلى غرفته ولا تعلم شيئاً عن موعد عودتهما

لأنها حين تخرج من غرفته يكون التعب قد هدها فترتمي فوراً على فراشها وتغفو بلا حراك.

دفن عبد الرحمن ولديه وعاد يفكر كما يليق بناسك أخطأ ودفع ثمن الخطيئة ثم تاب.

حملت أمل صرتها المليئة بالفساتين بصمت مصحوبةً بمبلغ من المال تعويضاً لها عن خدمته وما لحق بها من ضرر بسبب تنظيفها لغرفته ثم أوصلها إلى ضيعتها وعاد فوراً إلى صومعته بعد أن أخبر سعود أن أمل تسببت في تجمد ولديه وموتهما، أما عن خدمتها له فلم يعد يحتاجها لأن متطلباته لم تعد تحتاج إلى خادمة.

سجن عبد الرحمن نفسه بين جدران الصومعة يخرج منها بعد منتصف الليل حين يأوي الجميع إلى أسرتهم، يدور في الزواريب، يجلس في المقبرة، يفكر بزهد الناسك ويرى ويسمع ما يحق لناسك أن يسمعه ويراه، وكان يردد بينه وبين نفسه إن الله غفور رحيم.

توقف ذات ليلة مقمرة عند الريحانة، مأوى صغيريه قبل رحيلهما، نظر إلى داخلها فرأى فسحة تشبه المهد ويغطيها التبن وبعد ذلك سمع صوت أنين يخرج من بين

الأغصان ثم صوت بكاء خيل إليه أنه آت من الريحانة، بسمل الناسك وحوقل ثم تابع سيره إلى صومعته ولاحظ اثناء سيره أن شجرة الريحان تسير معه جنباً إلى جنب وبعد عدة خطوات صار يراها أمامه ووراءه وهي معه شمالاً وجنوباً وارتفعت أصوات الأنين والبكاء حتى كاد لا يعلم الجهة التي تأتي منها الأصوات وقبل أن يصل إلى البيت بات واثقاً أن شجرة الريحان الكبيرة صارت أشجاراً واحتلت حواكير دير الهوى وزواريبها وبيوتها، ورأى أن صوت الأنين والبكاء سيظل يذكر أهل القرية بفعلته المشينة ومن يدري؟ قد يخلعون عنه لقب الناسك ، وبالتالي يحرم من الإجلال والتكريم ، ولمنع المحظور من الوقوع حث عبد الرحمن خطاه حتى خيل إليه أنه طار فوق أغصان الريحان لأنه بعد لحظات كان في صومعته ينزع عن جدارها المنجل الحاد الشفرة وعلى الفور بدأ بجز الأغصان بدءاً من بيته إلى المصطبة، بعد ذلك راح يهوم بمنجله الحاد فوق أغصان الريحان التي ملأت القرية ولم يستثن الأسطحة والجدران، لأن بعض الذين استيقظوا فجراً رأوه يمشي على الجدران ويهوم بمنجله على كل مكان يمر به.

وهاهو قبل طلوع الشمس، وبعد أسبوع كامل من العمل المتواصل، في فراشه يمضي تحت لحافه استراحة المحارب، والناظر إلى وجهه يرى على ثغره ابتسامة الرضا والاطمئنان، لقد دحر ذلك الماضي البغيض إلى غير رجعة، ابتسامته هذه تحولت بعد استيقاظه إلى صرخة رعب جلس في السرير وبدا غير مصدق ما يرى، أغصان الريحان حوله وكل غصن ينتهي بعين واحدة وجميعها تصوب نظرها إليه، مرر يده من بين الأغصان بهدوء ونزع المنجل عن الجدار ثم بدأ بقطع الأغصان، فترتمي مع العيون على الأرض، وقف على عتبة الباب ونظر إلى المصطبة وما بعدها وما بعد بعدها حتى تخيل أن أغصان الريحان الحاملة للعيون غطت الطرقات والزواريب والبيوت وهذا المشهد أرعبه لأنه حين تأمل إحدى هذه العيون التي تشبه المرآة رأى في وجهها المقعر نفسه الأمارة بالسوء مع أمل في وضع مشين، أما وجهها المحدب فرأى فيه صغيريه المتجمدين بين أحضان الريحانة.

كان عليه قطع الأغصان بأسرع وقت ممكن، وفي تلك اللحظة تمنى لو أن له عشرات الأيادي ومئات المناجل فيقطع كل الأغصان قبل أن تقع عيناه على عيونها.

بدأ عبد الرحمن عمله متخيلاً قوة خارقة حلت في جسده لا تعترف بالضعف ولا بالتعب، وشيئاً فشيئاً فقد حسه بالزمن ولا يدري كم من الساعات ومن الأيام وربما الشهور التي استغرقها حتى تمكن أخيراً من قطع آخر غصن واقتلاع آخر عين. تمطى في سريره بعد نوم عميق وطويل ثم فتح عينيه ورأى أغصان الريحان بألسنة حمراء طويلة وسمعها تثرثر بما حدث وبما لم يحدث. قام من سريره وبهدوء استل المنجل وراح كالمجنون يضرب في كل الاتجاهات وكان منجله بتاراً لتلك الأغصان اللعينة لكنه لاحظ أنه لم يعد فعالاً فكل غصن يقتل ينمو منه عشرات الأغصان وكل لسان يقطع يخرج منه عشرات الألسنة، ورأى بعض الأغصان الجديدة تخرج من الأرض ولها آذان وبعضها كانت تحمل دفاتر عليها أقلام تكتب قصته مع أمل وجنينها وطفليه، وهذا كله لم يثنه عن إصراره على دفن ماضيه ومنع أي كان من معرفته، وقد يكون الناسك قد حقق هدفه أخيراً، لكن ما يحير سكان قرية دير الهوى في سلوك ناسكهم هو ركضه المتواصل على طرقاتهم وفي زواريبهم وصعوده أحياناً على جدران بيوتهم أو الوقوف على أسطح بيوتهم يهوم بمنجله

في الفضاء، بعضهم قال: إنه النسك يذهب بالعقل في بعض مراحله، وقال آخرون: وهل ما حدث معه يبقي على عقل؟ فقد زوجته وصغيريه وأخيراً فقد عقله! مسكين! لم يعد لديه عمل إلا حصاد الهواء!.

المشطور

أعجبته العبارة التي سمعها من مدرس اللغة الإنكليزية (لغة واحدة تعني شخص واحد. ولغتان تعنيان شخصين). ماذا يعني هذا؟ تساءل عبد الحميد وهو يراقب وجه مدرسه الصارم، ثم شرد وأغمض عينيه متخيلاً نفسه يدخل إلى الجامعة ليدرس في كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية وبعد أربعة أعوام من الدراسة والتحصيل ينشطر إلى شخصين اثنين يجمعهما اسم واحد هو عبد الحميد سليمان، عبد الحميد (الأول) ابن القرية البعيدة عن المدينة، أسمر الوجه بعينين بنيتين وشعر كستنائي وجسد نحيل بقامة متوسطة، يتحدث اللغة العربية بطلاقة ويكتبها بخطٍ جميلٍ ويقرأ الآداب العربية المتنوعة،

القديم منها والجديد، المدنس منها والمقدس وهو عاشق لطبيعة قريته البكر ويرى فيها عظمة الخالق وإبداعه الذي لا يماثله إبداع. وعبد الحميد (الثاني) شعره أشقر وعيناه ملونتان (خضر أو زرق) لا فرق، وهو أكثر طولاً من الأول يتقن اللغة الإنكليزية كتابةً ومحادثة، ومن خلال قراءة ما يتوفر بين يديه من كتب ومجلات سيتعرف على ثقافة أصحاب تلك اللغة الغريبة وسيطلِّع على حضارتهم. ترى ماذا سيقول والدي عني؟ سأل عبد الحميد نفسه وعيناه ما زالتا مصوبتين إلى وجه أستاذه الذي كان يتحدث عن ضرورة معرفة الآخر من خلال تعلم لغته أولاً. قدر عبد الحميد أن انشطاره إلى نصفين أحدهما إفرنجي لن يسعد والده، وبدا متأكداً أنه سيتنكر له لأن عبد الحميد أعلن أكثر من مرة رفضه لدراسة اللغة العربية في الجامعة فهو لا يعدّ دراستها إلا عملية اجترار لما تعلمه في المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية، أما عن كونها لغة القرآن الكريم فرأى عبد الحميد أنه من غيرالحكمة أن يخصص الإنسان حياته كلها لقراءة كتاب واحد فقط فثمة كتب أخرى يجب أن يطلع عليها ليكتشف أهمية كتاب أمضى عقداً من عمره في قراءته والبحث عن

تفسيره، وتذكر عبد الحميد أن والده ضربه يوم أخبره أن الغرب سبق الشرق بأشواط لأنه قرأ الكثير من الكتب العربية والأجنبية ويجب علينا نحن في الشرق أن نحذو حذوه.

لم تعجب فكرة الابن المتحمس والده الكهل لأنه يرى في القرآن الكريم والقصائد الصوفية وبعض الكتب الصفراء التي تتحدث عن السلف الصالح كل ما يحتاجه الإنسان في دنياه وآخرته وما عداها يولد الخراب ويؤدي إلى الضياع وقرر أن يفعل المستحيل لتنظيف رأس الفتى من إعجابه الشديد بثقافة الإفرنج وحين يأتيه ثرثار بخبرٍ لا ينسجم مع سعيه هذا يتجهم وجه الأب فيوحي لمحدثه بأنه لا يرغب في مزيد من الثرثرة والتدخل في ما لا يعنيه.

استسلم عبد الحميد لحلم يقظة رأى فيه نفسه طالباً جامعياً يقرأ الأدب الإنكليزي ويسير جنباً إلى جنب مع عبد الحميد الناطق باللغة العربية، يلقي الأخير التحية على الجميع بينما يسير الأول رافعاً رأسه ويحتفظ لنفسه بمفرداته الغربية وقناعاته الجديدة، وكان يردد:

ـــ هـه، مساكين، يظنون أنفسهم أسياد العالم، لكن الحقيقة تقول إنهم دراويش غافلون عما يجري،

ولكن يجب أن يظلوا هكذا لأنني لو أخبرتهم الحقيقة التي أعرفها فسأرجم وأدفن تحت حجارتهم وحصاهم، هـه، العالم مكتبة وليس كتاباً العالم فلسفات وليس فلسفة، العالم.... أطلق بعد ذلك ضحكة قوية.

خرج عبد الحميد من شروده حين سمع ضجيجاً تلته قهقات قاصفة عصفت بالمكان وحين نظر حوله رأى وجوه الطلاب جميعها متوجهة إليه فيما المدرس يسأله عما كان يضحكه أثناء شرح الدرس. تلعثم فهو لم ينتبه إلى نفسه وهو يضحك وعلى الرغم من ذلك أكد لمدرسه بصوتٍ قوي مهزوز أنه كان يتابع شرح الدرس عند ذلك سأله المدرس عن الفكرة التي كان يشرحها للطلاب، وما رأيه بها، حك عبد الحميد فوديه ونظر حوله يتوسل أحدهم جواباً ينقذه من الورطة التي أوقع نفسه فيها وحين لم يكن ثمة منقذ بل ابتسامات مكبوتة ونظرات ساخرة تترصده، أعاد المدرس الفكرة بصوتٍ قويٍ مكرراً مقولة أرسطو وتلامذته حول فكرة الإبداع، وحين قال إن ريشة الفنان أكثر إبداعاً من عشوائية الطبيعة لأن الأولى عدا عن أنها تحمل رسائل إنسانية، جمالية، وجودية، فهي أكثر تنظيماً من الثانية، وقبل أن يكمل المدرس فكرته

صاح عبد الحميد ملء صوته معترضاً على ما قاله المدرس مؤكداً ألا يد تعلو على إبداع الله المتمثل بالطبيعة وبكل ما يحيط بنا، توقف عبد الحميد عن الكلام حين عاد الهرج والمرج إلى الفصل، ولو طلب منه المدرس توضيح فكرته لما وجد مفردات تساعده على ذلك لكنه آلى على نفسه أن يثبت خطأ مقولة أرسطو وذلك بأن يبحث عن طريقةٍ لنقضها، كيف؟ سأل نفسه وهو واقف والمدرس يطلب من فتيته التزام الهدوء ثم يشير بيده لعبد الحميد أن يجلس على مقعده وينتبه إلى الدرس. لكن عبد الحميد عاد إلى شروده وراح يبحث في عوالمه عن فكرةٍ تنقض مترجمي فكرة أرسطو وتلامذته الملحدين كما أسماهم، وارتفع صوته سائلاً: كيف يجرؤون؟ إنهم كفرة ملحدون وسيرمون في نار جهنم وقد يعادون إلى الأرض قردة أو زواحف أو مسوخاً. أعاد صوت عبد الحميد الضجيج إلى الصف فأخرجه المدرس من الفصل، وحذره من العودة إليه إلا إذا عاد إلى رشده.

خرج عبد الحميد مع كتابه من الفصل وجلس في باحة المدرسة وأضمر في سره أنه كان سيخرج بنفسه كي لا يكون شاهداً على فكرة ملحدة. جلس على

طرف الباحة وأطلق نظره باتجاه المدى الأخضر المنداح أمامه وراوده وهو ينظر إلى البحر الأخضر تساؤل حول جرأة من أسماهم المدرس برواد المدرسة الجمالية القائلين بتفوق ريشة الفنان على بكورة الطبيعة وبلغ إعجابه بما يراه درجةً استبعد معها أن يكون أرسطو وتلامذته قد خرجوا بفكرة كهذه، أيكون المدرس قد أخطأ في الترجمة؟ هذا السؤال طرحه عبد الحميد على نفسه لأنه كان معجباً بأفكاره التي تتجاوز أفكار المدرس ولذلك عجل في فتح كتابه وراح يترجم المقطوعة بهدوء وبعد ترجمةٍ حرفية تلتها ترجمة للفكرة أعادها ست مرات تأكد عبد الحميد أن العلة ليست في مدرسه أنهم....

ـ غريب! كيف يجرؤون؟

مزق عبد الحميد كتاب اللغة الإنكليزية، ورماه في ساحة المدرسة ثم توجه إلى المنزل، دخل إلى الغرفة وأغلق على نفسه الباب، وراح يتساءل عن الطريقة التي يجب أن يقوم بها ليثبت لأرسطو وتلامذته أن يد الله التي ترسم لوحات الطبيعة هي أكثر إبداعاً من يد الإنسان، المخلوق المحدود التفكير، المتواضع الإبداع.

هجر عبد الحميد كتب مقرر اللغة الإنكليزية وهام في زواريب قريته ثم خرج منها إلى الوديان والجبال، نظر بعين النسر إلى الطبيعة، النهر، الجبل، الوادي، الشجر... كما راح يراقب مخلوقات الله السفلية والمعتادة، وكتب على دفتره هذه العبارة (الله هو وحده الذي نجهل إيثاراته الجمالية أما الإنسان فهو مقلد سيء لهذا الجمال).

لم تخرجه هذه العبارة من دهشته، وهي في الوقت ذاته لا تكفي للرد على أولئك الكفرة والملحدين والذين يرى أنهم أساؤوا في ترجمتهم الخاطئة من اليونانية إلى الإنكليزية لفكرة لأرسطو، فهذا الفيلسوف لا يمكن أن يقول: إن يد الإنسان أكثر إبداعاً من الطبيعة لأن فن الأولى هادف ومنظم ودائم إلا إذا خربه الإنسان على عكس الثانية التي يتسم فنها بالفطرية والفوضى والتغير بل والزوال بفعل التقادم.

كان عبد الحميد يرى نفسه منفتحاً وجانبه الذي أتقن الإنكليزية على استعداد لأن يتقبل أية فكرة لا تتعارض مع قناعاته السابقة. صحيح أنه أراد أن يطلع على كتب جديدة وثقافات أخرى، ولكن هذه الفكرة الملحدة كما يراها من جانبه قرر ألا يتصالح معها، وعليه

لكي يستمر في دراسته وإضافة معلومات جديدة لثقافته أن يبارز مترجمي فكرة أرسطو اليونانية حتى ينتصر عليهم، كيف؟ إنه تساؤل يشغله وفي الوقت ذاته يخيفه، لقد قرأ قصصاً عن أشخاص أدى بهم فضولهم إلى الإلحاد والفجور، فهل سيكون حاله كحالهم؟ خاصة وأنه رأى من الخطوة الأولى بداية الانحراف، فالإسلام يحرم التقاط الصور لمخلوقات الله وكذلك الإنجيل سبقه في هذا التحريم.

لكنه وبعد طول تفكير رأى أن الضرورة لها أحكام وهو موجود هنا لإثبات بطلان رأي مترجمي نص أرسطو حول الفن، المترجمون الخونة، ورأى أن المهمة جليلة لأنها تتعلق بإعلاء شأن الحق، ولن يحاسب عليها أبداً، ولذلك اشترى كاميرا قديمة وضعها في الجركندية المحيطة بخصرهِ وانطلق بها إلى الطبيعة البكر.

كان الفصل شتاءً وكاميرته التي علّقها بعد وصوله إلى الحرش في عنقه تشبه بندقية قديمة بين يدي صياد مبتدئ يطلق طلقة كلما سمع خربشة في الجهات الأربع وما أكثر العصافير واللوحات، في فصلٍ يصنع لوحاته في الليل حيث البرودة شديدة والناس نيام أو بجانب مدافئهم،

ورأى عبد الحميد أن مداهمة الطبيعة في اللحظات الفاصلة بين طلوع الفجر وشروق الشمس عمل ذكي وهو وقت مثالي لالتقاط الصور، حيث الطبيعة تكون كما البشر في حالة تثاؤب، ترى كيف سيكون الحرش والمغارة والنبع وأشجار البلوط والسنديان و.... في لحظات كهذه؟ ختم عبد الحميد تساؤله بتخيلاتٍ كانت أدنى من الواقع بكثير وهذا ما دفعه لأن يستنتج حقيقة تقول إن أكثر الأشخاص جهلاً بالمكان هم ساكنوه أو جيرانه فهو لم يكن يتوقع أن يرى لوحاتٍ جليدية فاتنة تغلق باب المغارة العميقة، كما أنه لم يكن يتوقع أن تكون الأشجار بأوراقها وأغصانها الكبيرة منها والصغيرة في حالة يقظةٍ طوال الليل من أجل ابتكار لوحات طبيعية آسرة وكذلك الأعشاب الشتوية فلوحاتها البلورية لا تقل روعة عن لوحات المغارة والشجر وضفتي النهر. وقف عبد الحميد في حالة دهشة أمام منظرٍ لم يكن يكن يعرف أنه موجود أصلاً وبسبب سحر المكان تلاشى شعوره بالبرد الذي بدأ يتسلل إلى جسده لحظة خروجه من المنزل حتى لحظة وصوله إلى الحرش، ووجد نفسه يصيح ملء صوته داعياً المدرس والمترجمين مع أرسطو وتلامذته ليأتوا

ويروا إبداع الله،وإبداع الطبيعة، في أحد تجلياتهما. لنقل إن ما رآه عبد الحميد في تلك اللحظات مع تنوعه وتشكلاته الغريبة قد عبر خط الدهشة ليصل إلى درجة النشوة التي تؤدي في ذروتها عند البعض إلى حالةٍ تشبه الجنون. أخرج الفتى الكاميرا من عنقه وراح يلتقط أكثر اللوحات جمالاً وإبهاراً، وقف أمام المغارة والتقط ثلاث صور لجليدها المتشابك بطريقةٍ فنية ثم ركض بين الأشجار يسجل من بين أغصانها صوراً غريبة ومدهشة ولم ينس لوحات ضفتي النهر التي تشبه أعشاش ديدان الربيع، ومع شروق الشمس كانت الكاميرا قد التقطت صوراً لستٍ وثلاثين لوحةً جليدية متنوعة وبعد امتلاء صور الفيلم الفارغة باللوحات الفضية، جلس عبد الحميد يلتقط أنفاسه ويراقب اللوحات الجليدية وهي تذوب وتفقد جمالها وتناسقها، وبعد أن استوت الشمش قبة السماء تبخرت اللوحات وكأنها لم تكن وشعر عبد الحميد بالإحباط وتذكر عبارة أرسطو المتعلقة بالجمال ثم قبض على الكاميرا بكلتي يديه وهتف: كلا اللوحات هنا وبها سأثبت للجميع خيانة المترجمين أو قصر نظر أرسطو وتلامذته.

وضع عبد الحميد كنزه، كاميرته، في الجركندية المحيطة بظهره وبطنه ووصل إلى غرفته عند الضحى، تناول فطوره وحمل الكاميرا قاصداً المدينة وضع الفلم في محلٍ لتحميض الصور، وعلم من الكيميائي أن عليه أن ينتظر أسبوعاً كاملاً ليرى الصور. كان عبد الحميد سيحدث الكيميائي عن محتوى الفلم ورأي أرسطو أو من ترجم نص أرسطو في الجمال والإبداع لولا أن الأخير طلب منه حتى دون أن ينظر إليه أن يعود بعد أسبوع ليأخذ الصور. وهاهو عبد الحميد يدفع باب محل التصوير ويدخل ليسلمه الكيميائي لوحاته التي التقط صورها في لحظات خاصة بلا مبالاة.

ـ لماذا لم يقل شيئاً؟! تساءل عبد الحميد بينه وبين نفسه وظن أن كيميائي محل التصوير من أنصار مترجمي نص أرسطو حول الفن فأراد أن يستفزه:

ـ هـه، ما رأيك؟ أليست أجمل من لوحات أعظم الفنانين؟

ـ هذا صحيح لو أن الكاميرا بيد فنانٍ حقيقي.

ـ كيف يصبح الإنسان فناناً حقيقياً؟

أمسك صاحب محل تحميض الصور بلوحة صغيرة وقال: الإبداع ليس في هذه اللوحات الجليدية بل في اليد التي توجه الكاميرا إليها. جمع عبد الحميد لوحاته الصغيرة، وشعر وهو يضعها بظرف صغير أن الكيميائي يقول له: لقد شوهت الطبيعة وشوهت معها إبداع خالقها.

المباركة

تحترم نزهة بقرتها أكثر مما تحترم أولادها السبعة، تسميها المعيلة والمباركة، صالح يقول لها: حتى لو اشتريت لها قطعة قماش وكلفتِ الخياطة سعاد بأن تخيط لها غطاء يمنع عنها برد الشتاء ويقيها حر الصيف فلن أعترض تتفق نزهة مع صالح على أهمية المباركة وتقول: هذه المباركة تبيِّض الوجه وتقتل الفقر، ولو كنا أكثر بحبوحة لاشتريت لها قطعتي قماش، واحدة للصيف وأخرى للشتاء، لكن اسمع يا صالح، إن أحمد يهتم بالبقرة، صحيح لا يعطينا الحليب ولا يلد لنا كل سنة عجلة أو عجلاً، ولا نستفيد مما يأكل بشيء، وكل عام يحتاج إلى جزمة وبنطلون وقميص لكنه والحق يقال يتعب

مع المباركة، يغسل جلدها ويدلكه ويقتل القراد الذي يمتص دمها ويسقيها من رأس العين.

ـ صحيح، يهز صالح رأسه ويضيف: علمت أنه يبحث دائماً عن مراع نظيفة وغنية بأعشاب الشوفان والدردار والكليبة.

يتفق الزوجان على أن أحمد يكاد يكون بمنزلة البقرة على الرغم من تكاليفه الباهظة. كل غروب تدخل المباركة إلى الزريبة، تحمل نزهة السطل وتفلت العجل ومعه تتقاسم الضروع الأربعة، وبعد أن تنتهي من حلب البقرة تسأل صالح إن كان قد سمع بمريضٍ جديد أو ولود لم تسمع بها أو زواج جرى بلا طبلٍ ومزمار ثم تتساءل على مسمع زوجها إن كان مُطهّر الأولاد قد مرَّ في القرية خلال اليومين الماضيين. وإن كان في القرية حالة من تلك الحالات السابقة تحملُ نزهة السطل تزوره تسأله عن حاله، وقبل أن يجيبها عن أسئلتها تحدثه عن المباركة وتضع أمامه السطل وتحلف بأن الحليب صاف ولم تضف إليه قطرة ماء، ثم تملأ له قدحاً وتطلب منه تذوقه، وتضيف: حليب المباركة دواء ولحمها داء لا يوجد في

القـرية ولـود لم تقـوَّ بحلـيب المـباركة، ولم يـستيقظ عروسـان بعـد ليلـتهما إلا ووجـدا هديـة نـزهة علـى بـاب مخدعهما. المباركة اسم يترنم به الجميع، خاصة ضيوف نـزهة الـذين يقـصدونها للـتلذذ بـزبدة المـباركة الطازجـة وخبـز التنور الـساخن، ويزهـر وجه نزهة وهـي تسمع عبارة (بـارك اللّه لـك بهـا) وتـردد بـثقة وهـي تمـسح رغـيف خبـزٍ بالسمن: سيبارك، سيبارك، إن شاء اللّه سيبارك.

ذات يـوم سمـع أحمـد بمكـان يكثـر فـيه الـدردار والـشوفان والـكليبة فسال لعابه وراح يستكشفه بنفسه، وحـين وصـل إلى مكـان وجـود الحـشائش الـتي تحـبها المباركة شعر بخيبة أملٍ كبيرة لأن المرعى مسورٌ بجدارٍ إسمنتي عـالٍ وفوقه أسـلاكٌ شـائكة وقطع زجاج مختلفة الأحجـام، وعلـى مدخلـه الوحـيد حـارس عجـوز بـساقين مـشلولتين، تتحـصر وظيفـته في رفـع الحاجـز أمـام سـيارة المدير العـام ومن ثم إعادتـه إلى وضعه الأول، ما عدا ذلك فالحاجـز مغلق والحارس مسترخ في محرسه أو نائم، ولديه تعلـيمات صـارمة بـشأن دخـول الغـرباء إلى هـذا المكـان المحـرَّم. قالـت نـزهة للحـارس بعـد أن وضـعت أمامـه سـطل

اللبن وقطعة الزبدة الطرية: المباركة ليست غريبة، إنها.... قاطعها وهو يهز يديه

ـ لا تتعبي نفسك، لن أسمح لها بالدخول.

ـ حتى لو أطعمتك حليباً وسمناً!.

ـ حتى لو أطعمتني لحماً.

ـ لكن المباركة مطعمة الجياع.

ـ حتى لو كانت الزاهدة.

ـ ليست زاهدة، لكن ربما كانت أفضل، لبنها دواء وزبدتها شفاء ولحمها داء.

حك الحارس رأسه وسألها: أين هي؟

ـ إنها مع صديقها أحمد.

خرج الحارس من المدخل على عكازه فرأى كالعادة غشاوة تحيط به من كل الجهات، وحين أحدّ النظر رأى في الجهة الشرقية خيالاً لبقرة لم يتبين لونها جيداً، فرك عينيه ثم سأل نزهة عن كمية اللبن والسمن التي ستدفعها مقابل دخول البقرة إلى مرعى الشركة، فمدَّت يدها مرةً أخرى إلى سطل اللبن وطبق السمن وقدمتها له، هزَّ

الحارس رأسه وطلب سطلاً آخر لمدير الشركة وذلك كي يغض الأخير الطرف عن البقرة حين يراها في الشركة، ترددت نزهة لحظات أخبرت خلالها العجوز بصوت عالٍ كي يسمعها أن حليب المباركة في هذه الحالة سيكون لحارس الشركة ولمديرها فقط، ورد عليها الحارس بأن ذلك سيكون فقط لشهرٍ واحد، وربما أقل، بعدها لن ينالا من حليبها قطرةً واحدة، وحين تأكدت نزهة أن مفاوض الشركة لن يتنازل عن شرطه، قالت في سرها ليذهب حليب المباركة إلى أولئك الجشعين مقابل أن تستمتع المباركة بالتهام الدردار والكليبة والشوفان، ثم لتنعم بالدلال والحرية في مكانٍ تكون فيه وحيدة لم لا؟. وافقت نزهة على الصفقة وأدخل الحارس البقرة إلى الشركة ولكن بلا مرافق أو صديق، وكانت فرحة أحمد كبيرة بدخول صديقته إلى مكانٍ يكاد يكون محرماً على البشر وأعلنت نزهة أنها لم تستغرب استثناء المباركة من تعليمات المدير التي تحرم على أيٍ كان كان من الدخول إلى الشركة المليئة بخزانات النفط وأذاعت أن الحارس منح البقرة حق الدخول إلى الشركة شأنها في ذلك شأن المدير العام، فلا تفتش ولا

تسأل ولا توقف أمام المدخل، لأن الحارس يعاملها وكأنها المدير العام فحين تصل يفتح لها الحارس الحاجز لتدخل، وعند الغروب يفتح لها الحاجز لتخرج مرفوعة الرأس عالية الجبين، تدخل فارغة الضرع وتخرج ممتلئة الضرع، وتضيف: ما حدا أحسن من حدا.

زاد حليب المباركة عن ذي قبل وراحت الهدايا البيضاء تتدفق على مدير الشركة والحارس وخفيةً عنهما كانت ترسل لبعض المرضى والولودات قليلاً من الحليب الساخن، واستمر الوضع على هذه الحال عشرة أيام، وفي اليوم الحادي عشر وقف أحمد كعادته ينتظر إطلالة المباركة من باب الشركة لآن دخولها ممنوع عليه على الرغم من ثقة الحارس أنه راع نظيف اليد، عفيف النفس.

حطت العتمة باكراً داخل السور ووصلت بطيئة إلى الحاجز، وكانت ثقيلة على قلب أحمد، أين المباركة؟ لماذا لم تأتِ؟ لماذا لم ترسل خوارها فتنبه الحارس ليفتح لها الحاجز وتتجه صوب أحمد مليئة الضرع بطيئة الخطى ليقودها إلى الزريبة؟

ضحك الحارس حين سمع أسئلة أحمد القلقة وقال له: تعال واجلس قليلاً، دقائق وتطل برأسها الصغير وتقول لك خذني إلى نزهة الكريمة وعجلي الرضيع، وريثما تصل المباركة شرب أحمد مع الحارس عدة كؤوس من الشاي الأسود، وحين زفر الإبريق زفرته الأخيرة تنبه أحمد إلى أن صديقته لم تأتِ. ربت الحارس على كتف أحمد وقال: اذهب إلى البيت قبل أن ينتصف الليل، وحين أسمع خوارها أقودها بنفسي إلى الزريبة.

مرت أيام والمباركة لم تأتِ ولم يسمع لها خوار خارج السور، ولم يعثر لها على أي أثر، ورفضت نزهة تصديق ما يشاع: لقد سقطت في حفرة نفايات النفط، لقد باعها الحارس، لا، لقد تسممت، لا، ليس كل ما قيل صحيحاً الحقيقة تقول أنه بموجب القرار الذي أصدره المدير العام والقاضي بحقه في امتلاك كل ما يدخل إلى الشركة فإن المباركة صارت ملكه. لم تأخذ نزهة بكل ما أشيع في القرية وظلت تحمل السطل وتدخل به إلى الزريبة ثم تخرج لتسأل صالح إن كان ثمة مريض لم تزره أو ولود لم تتقو بحليب المباركة أو عروسان لم تبارك لهما؟ ثم تحمل

السطل وتدور على المرضى والولادات والعرسان تحدثهم جميعاً عن المباركة وتطلب منهم إفراغ السطل وتعود به كما حملته فارغاً، لا خضار طازجة، ولا زيت زيتون، ولا قطع حلوى بيتية تحل محل الحليب واللبن.

اللوحة الأخيرة

كانت فاطمة جالسة مع طفلتها بجانب المدفأة تراقب أصابعها الصغيرة وهي تمسك حبة فستقٍ حلبي محمصة وفجأة تعثرت أصابعها وأوقعت الحبة من يدها فعادت تمسكها وتضغط عليها كي لا تهرب منها مرةً أخرى، وسمعتها تسب على أصابعها لأنها دائماً تفلت الأشياء من يدها. شعرت فاطمة بتأنيب الضمير وأطلقت ذاكرتها تستعيد يوم وضعت فيه ما ظنته مولوداً ذكراً ثم فاجأتها الممرضة حين قالت لها وهي ترمي في حضنها لفافة بيضاء يطل منها وجه جميل ويدان صغيرتان: (أنجبت بنتاً)، فوجئت فاطمة حينئذٍ وسألت الممرضة بلا وعي منها إن كانت أصابع البنات تزهر.

- تزهـر؟ نعـم تزهـر مـصائباً وهمـوماً، أجابـتها الممرضة على عجل وهي تغلق باب غرفة التوليد وتخرج.

مدت فاطمة يدها إلى اللفافة وراحت تداعب الأصابع الطرية، وآلت على نفسها أن تعتني بها حتى تورق وتبرعم وتزهر تماماً كما في الحلم، ولكن كيف تزهر أصابع البنات؟ سألت نفسها وهي تشم رائحة الجسد الطري المعطر.

كان الحلم طفلة رائعة الجمال بأصابع رشيقة يخرج منها أوراق وزهور بيض، حمر، صفر، تثمر فواكه وخضاراً غريبة وعصافير ملونة وحمائم مزخرفة، إنه حلم غريب. فسرته حينئذٍ صبياً بأصابع هلامية تمتاز بخفة فريدة في خطف الأشياء وإخفائها. المولود القادم ثروة كبيرة سيضع يده على كل شيء أما الحمائم والعصافير فهي الشهرة التي سينالها الثري الكبير.

لم تغير ولادة بنت كثيراً في أهمية الحلم، إذ إن وجود أصابع سليمة ورشيقة كاف لتحقيقه، لكن كيف؟

رأت فاطمة أن من المعيب أن تكون أصابع البنات خفيفة تخطف كل ما تقع عليه ثم تخفيه، واقتنعت بعد طول تفكير أن أصابع البنات تزهر علماً وأدباً وأمومة.

قناعتها فرضتها الحياة العصرية، لقد اختلفت شروط الإزهار عما كانت عليه في العقود السابقة، إنها الآن أكثر تنوعاً وأشد تعقيداً، ثمة أمر كان يزعجها كثيراً ويتعلق بميول مها الفنية، إذ لاحظت أن طفلتها مغرمة بالخربشة على الجدران والأوراق وأحياناً ترسم عليها أشكالاً غريبة ومدهشة، وراحت فاطمة تحذر طفلتها من تشويه الجدران وتوسيخها، فاكتفت الصغيرة بالأوراق وأقلام الفحم أصدقاء دائمين، ووجدت مها نفسها بعد بلوغها الخامسة على كرسي صغير وأمامها الأقداح والصحون والطناجر، إذ رأت فاطمة أن الإزهار يبدأ بتدريب طفلتها على الأعمال المنزلية من كنس وطبخ وتنظيف وغسل لأواني المطبخ مروراً بغسل الثياب وكيها، والخطوة التالية تكون بتعليمها بعض الأشغال اليدوية حتى إذا بلغت السادسة من عمرها حملت حقيبتها المدرسية ووضعت نصب عينيها هم التفوق لنيل شهادة تواجه فيها الحياة. ولاحظت فاطمة بعد مرور أيام على مشروعها أن ابنتها لا تقبل على هذه الأعمال، كما أنها تهرب من مهام إنجازها حين يكون الهروب متاحاً إلى الأوراق البيضاء وأقلام الفحم وأقلام التلوين الأخرى، وهذا ما دفع الأم للتساؤل إن كان الحلم كابوساً

والطمـوحات أضـغاث أحـلام. إلا أنهـا وهـي المتحمـسة لمشروعها الأمومي قررت الاستمرار في تشجيع مها من أجل الوصول إلى حلمها. وذات يوم وبينما كانت الصغيرة تدخل يدها في قدح زجاجي لتنظفه فإذا بالقدح ينكسر وتجرح شـظية مـنه الـسبابة جـرحاً دفعهـا للـصراخ والقفـز عـن الكرسـي. أسمـت الأم مـا حـدث خطيـئة أولى لا يجـوز أن تتكـرر، فغسلت الأوانـي المخضبة بالـدم ومنحت صغيرتها استراحة دامت أسبوعاً أعفتها خلاله من ممارسة الأعمال المنـزلية المجهـدة. وهجـرت مهـا بـسبب مـا حـدث ركـنها الحمـيم الـذي يـضم عـدة الرسـم إذ عجـزت عـن الإمـساك بقلـم الفحـم وتـوقفت عـن رسـم الأشـكال الغـريبة علـى الأوراق البيـضاء. بعـد أسـبوع جلـست مهـا في زاويـة الغـرفة وراء البـاب. أخـرجت مـوادها واكتشفت أنهـا غـدت عاجزة عـن تحـريك سـبابتها، لقـد شـلت، أكـد الطبـيب انقطـاع الـشرايين الـصغيرة الواصـلة إلى الإصـبع، وأخـبر الأم بالحقيقة المـرة، ولم تستسلم مها العاشقة لأقلام الفحم بل راحـت تـدرب أصـابعها الأخـرى الـسليمة علـى الرسـم وحـين اكتـشفت الأم مخـبأ ابنـتها اسـتعادت مـا قالـته الممرضـة وتـساءلت مـا إذا كانـت أصـابع البـنات تزهـر همـوماً ومصائب كما قالت لها صاحبة الرداء الأبيض.

لم تكن فاطمة امرأة تستسلم لعارض كهذا ولذلك تحدت ما أسمته ثرثرة واستمرت في العمل لإنجاح المشروع الحلم، فصارت توجه مها لأشغال الإبرة والأعمال المنزلية البسيطة واضطرت ذات مرة لتهديدها بأنها ستمزق أوراقها وتكسر أقلامها إن استمرت في الخربشة اللامجدية. ولم يكن هذا التهديد يعني شيئاً لأن مها كانت تحضر بنفسها كل ما تحتاجه من المكتبة المجاورة للمنزل ثم تختبئ وراء الباب، ترسم صوراً غريبة، وأشجاراً طائرة وأنهاراً تستطيل مياهها وتخرج منها تنانين، وفتيان بأجنحة وأذيال. كان كل شيء منفلتاً في رسوم ابنة الخامسة لا ضابط يؤطرها ولا قانون يحكمها، ومع بلوغها السادسة وجدت الأم منفذاً لإخراج ابنتها من ركنها الحميم، فصارت تشدد على ضرورة الاهتمام بواجباتها المدرسية، حتى إذا انتهت منها ذكرتها بالأعمال المنزلية الصغيرة وأشغال الإبرة.

لم تكن مها تأخذ دائماً بتعليمات فاطمة لأن شيطان الرسم تمكن منها بعد أن ذهبت إلى المدرسة أكثر من أي وقت آخر. حيث زادت رغبتها في خلخلة قوانين الحياة والتمرد على المعتاد والمألوف، فصارت تخرج

من بين أوراق الأشجار أطفالاً بدل الثمار، ومن الينابيع أسماكاً وقوارب وصيادين بدل الماء.

وذات يوم وبعد عودتها من المدرسة، دخلت مها إلى غرفتها وأغلقت الباب وراءها، ثم جلست في ركنها الأثير وأطلقت العنان لقلم الفحم يسجل على الورق تخيلاتها، وتلاشت في عالمها المدهش متجاهلة نداء أمها، وما كانت صيحات العالم كلها لتخرجها في تلك اللحظات من تخيلاتها، وحدها عصا فاطمة الغليظة أعادتها إلى العالم الأرضي وذلك حين انهالت على الأصابع الرشيقة وكأنها صخرة مسننة الحواف حيث استطاعت بثلاث ضربات من تلك العصا أن تدمي الأصابع الطرية وتلون اللوحة الأخيرة بالدم. أبعدت مها أصابعها من مرمى العصا الغليظة وهربت.

كانت لحظة جنون، رددت الأم في سرها ثم رمت سيفها الحاد وجلست على كرسي صغير تنظر إلى الأوراق المكدسة وراء الباب. ولكي تخفي أي أثرٍ لجريمتها التقطت الورقة الملونة بالدم ورمتها بعيداً عن ناظريها وتناهى إلى مسمعها صوت ابنتها يأتيها من الخارج يشكو من ألم فظيع في أصابعها اللدنة.

اعتقدت فاطمة أن الألم سيكون درساً لن تنساه مها وبسببه لن تعود إلى هذا الركن ولن تمسك قلم الفحم وتخرِّب فيه بياض الأوراق. أصابع مها ستزهر بما تحتاجه الحياة وما يعجب فاطمة ويدهش الآخرين، على الرغم من أنها بدأت تشكك بجدوى الوسيلة التي اتبعتها من أجل الوصول إلى هدفها، ولكن هل ثمة وسيلة أفضل؟. سألت فاطمة نفسها وهي تلملم الأوراق من وراء الباب وراحت تتفحصها ورقة، ورقة. حتى إذا انتهت منها هتفت: أصابع مها ستزهر، بل هي أزهرت، هاهي الحمائم والعصافير والوجوه الآدمية معلقة على الأشجار بدل الثمار، وهاهي الأنهار والينابيع تغدق بجنون، والأزهار ذات الأشكال المختلفة تملأ الأوراق، لكن ما نفع كل هذا؟ أليس مضيعة للوقت وهدراً للعمر؟ ومع ذلك فهو إزهار، ستصبح مها فنانة كبيرة وستتخطى شهرتها البلدة الصغيرة.

حملت فاطمة الأوراق وراحت تبحث عن طفلتها فلم تعثر لها على أثر في أي من الغرف، كما أنها لم تكن في الشرفة، أين ذهبت؟ هل حدث لها مكروه؟ جلست الأم تنتظر ابنتها، وقبل غياب الشمس بقليل سمعت وقع

خطواتها الصغيرة، وقبل أن تهرع لاحتضانها، مدَّت مها أصابعها المدماة وقالت لأمِّها: لقد فقدت أصابعي القدرة على الإزهار ومنذ اليوم سأكون كما تريدين............

العراب المخضرم

حـدث ذلـك في مدينـة سـاحلية صـغيرة وتحديـداً في شارع رئيس يتوسـط تجمعاً سـكنياً بنته الحكومة لإيواء عمـال شركتها النفطية الكبيرة ، سـكان المدينة يعرفون بطل الحكاية بالعراب المخضرم، ولقبه هذا اكتسبه لأنه شـهد توالـي أربعـة مـدراء علـى الـشركة المذكورة، ولذلك وضـع زبدة خبرته بـين يدي شقيقه المدير الرابع للشركة، وهـذا الأخير اسـتوعب علـى الفور دروس عرابه وأخلص لها لدرجة أنه استطاع مع أستاذه صنع إمبراطورية مالية خاصة بهمـا تـوازي في ميـزانيتها ميـزانية الـشركة الحكومـية وربمـا أكثـر، وخبرة الاثنين معاً امتد تأثيرها إلى الخلف، المدير الخامس، الذي وجد نفسه في بحر متلاطم الأمواج، مـا إن يجد طريقة للنجاة حتى يفاجأ بموجة عاتية تحاصره وتكبله.

حـين تذكـر عـبارة العـراب المخـضرم يستحـضر سـكان المدينة على الفور عدنان شـاهين، الـرجل الطويل القامـة، المجـدور الـوجه والجـاحظ العيـنين، والمقـربون مـنه يعـرفون أن عبارة العراب المخضرم يضاف إليها كصفات فيـزيولوجية أنـف كـبير وفـم واسـع شـفتاه خطـان رماديـان تكادان تصلان إلى أذنيه، والعبارة الآنفة الذكر (العراب المخضرم) تعني لساناً طليقاً أتقن لهجة أهل المدينة ببراعة، ولا عجـب في ذلـك فهـو مـنذ نعـومة أظفـاره بـل ومـن لحظـة تشكله في رحم أمه ابن مدينة هجينة ولذلك يمكن القول أنـه وقـبل أن يكـون عـراباً كـان لـسانه وسـيلته الوحـيدة لكـسب ود المقـربين إلـيه، بـل إن بعـضهم كـان يغمـض عينيه ويتخيل محدثه رجلاً يضاهي لسانه سحراً وجمالاً، هـذا اللسان جعله مقرباً من جميع مدراء الشركة، ويقال إنـه كـان بمئة رجل لأن عينيه الجاحظتين كانتا تلتقطان مـا يظنـه الآخـرون تافهـاً بيـنما يـراه هـو مهمـاً لدرجـة أنـه يوصله فوراً إلى مدير الشركة، لكن كما يراه من وجهة نظـره الـتي تكـون أحـياناً بعـيدة عـن الواقـع، أمـا أذنـاه الكبيرتان فهو مدين لهما بسماع كل ما كان يقال داخل الجدران حتى إنـه كـان يسمع دبيب نملةٍ سولت لها نفسها مغامرة الدخول إلى مبنى الإدارة.

احتفظ عدنان شاهين بعد أن فاز بلقب العراب المخضرم بطلاقة لسانه وأناقة كلامه حتى ليقال إن المريض إذا دخل مكتبه يخرج منه صحيحاً معافى، وإذا وجد المعدم وسيطاً يوصلّه إلى مكتبه الأسطوري فإنه سيعتقد في نهاية اللقاء أنه من أثرياء العالم الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة. ولم يستثن سحر لسان العراب المخضرم رجل القاع الذي يشعر وهو ينظر إلى البشر العاديين على أنهم عماليق وهو لا يعدو عن كونهِ زاحف يدب على الأرض وقد يدوسهم أحدهم في أية لحظة، هذا الرجل المحبط والبائس ما إن يلتقي عدنان شاهين ويسلم عليه حتى يشعر بأنه تجاوز في عملقته كل الذين يدبون حوله، أما العاطل عن العمل فسيجزم بعد سماعه حديث صاحب اللسان الطليق بأنه يقدم خدمات كبيرة لوطنه وأمته، بل إن تفانيه في عمله يفوق تفاني مسؤول كبير في الدولة.

لنقل إن هؤلاء جميعاً مدينون بسعادتهم ورضاهم عن أنفسهم لذلك الرجل المعجزة، وبالتأكيد سيتبادر إلى ذهن القارئ سؤال حول الكيفية التي استطاع العراب المخضرم إسعاد هؤلاء دون أن يقدم لهم أية مساعدة أو يتنازل لهم عن أي موقف أو حتى يقدم لأحدهم فنجان قهوة أو كأس ماء.

لا يـدري الأسـتاذ عـدنان مـن أيـن أتـته كـل تلـك الأمـراض، فهـو يخبر كـل مـن يجلس معـه أنـه بعـد عامين مـن عملـه في الـشركة أصـيب بمـرض الـربو، حمـد اللّه وشكره على تفقد ربه له، ولا ينسى أن يعلن أمام كل من يقـف معـه لحظـات أن مرضـه هـذا جعلـه يـزهد في كـل شـيء، ويظـن مـن يـستمع إليه أن حكايـة محدثـه انـتهت، وحين تطفـر الدمـوع مـن عينـيه يعلـم المـستمع أن ثمـة بقـية مليئة بـالألم والخيبات فيشعر بالشفقة تجاه رجل يبدو في عـيون الجمـيع عملاقـاً صـلباً ومخـتالاً فـيردد في سـره (مـا أغبـى الإنـسان حين يحكم على أخيه الإنسان من المظاهـر الخادعـة). تتوقف دموع عدنان شـاهين عـن التقاطـر وتعود إلى لسانه طلاقته وحلاوته ليخبر المستمع المقطوع الأنفاس أن اللّه تفتقده مرة ثانية حين ابتلاه بداء لا شفاء منه.

ـ نعـم يـا صـديقي، أنـا مـصاب بداء الـسكري، وهـذا الـداء أعطـب قـسماً مـن شـراييني، أرأيـت يـا صـديقي أنـا مبتلى بثلاثة أمراض لا أمل لي بالشفاء من أحدها.

سـيمفونية المـرض هـذه عـزفها العـراب المخـضرم أمـام كـل مـن جـاءه متظلماً أو شـاكياً من مرض سببه له العمل في أمـاكن خطـرة، أمـا مـن جـاءه طـالبـاً عمـلاً أو مـساعدة

وجيوبه فارغة ويداه لا تحملان ما خف حمله وغلا ثمنه فثمة سيمفونية أخرى تعزف بعد سيمفونية المرض، وبعد أن يتمنى عدنان شاهين لو أنه يمتلك صحة ضيفه وبأنه يفضل أن يتحد بالأرض أو بالشارع وحتى الزبالة المكومة في حاويات المدينة على أن يكون في هذا المكان الذي سبب له هذه الأمراض القاتلة، يخبر ضيفه بأن كل ما يقبضه يكاد لا يكفيه ثمناً للأدوية التي تسكن أوجاعه وتبقيه على قيد الحياة، ثم يصف الصحة بالكنز الذي لا يقدر بثمن. وبناء على ذلك كان كل من يستمع إلى عدنان شاهين يشعر بأنه ثري بلا حدود وعملاق بحيث يصعب رؤية رأسه أو تخيل طول ساعديه وقدميه.

وهكذا أقنع الغراب المخضرم كل من جالسه أو سلم عليه بأنه ما هو إلا قزم بين عمالقة ومعدم بين أثرياء وعليل بين أصحاء، على الرغم من أنه يكاد لا يمر يوم من شهر رمضان لايكون فيه صائماً ومتعبداً ربَّه كما يليق بمؤمن لايبغي من الدنيا إلا الثواب، كما أنه حاول أكثر من مرة أن يطلق لحيته لكنه يعيد حلاقتها حين يكتشف أنه أمرد، وذات مرة طرق باب صومعة شيخ الحي الذي يسكنه وشكا له علله التي لا تتناسب مع

زهـده وورعـه، وهـنـا عـرَّج علـى مقـولة شـعبية تقـول: إن المصائب على قدر الخطايا، عندئذٍ اعترض سيد الصومعة علـى المقـولة الـشعبية واسـتبدل بهـا عـبارة: إن الأخطـاء الصغيرة تسبب أمراضاً دنيوية على عكس الآثام الكبيرة التي يعاقب عليها الإنسان في دار البقاء.

أعجب عدنان شاهين بالفكرة لكنه لم يدفع ثمنها لصاحب الصومعة الذي وجد نفسه يندم على قولها ويصف في سره ضيفه بالبخيل القليل الإحسان، وفكر بأنه لو باح برأيه الأخير فستتراجع إيراداته بسبب لسان ذلك الخبيث لأنه ببساطة وفي معركة غير معلنة بين اللسانين، لسان الغراب ولسان صاحب الصومعة، انتصر الأول على الأخير وربما يكمن السبب في تغلب الرغبات الدنيوية على ثواب الآخرة عند سكان المدينة، وما حدث فيما بعد لم يغير في المعادلة شيئاً.

ـ وكأن الله كتب علي المرض والحزن.

هـذه العبارة رددهـا عـدنان شـاهين مـئات المـرات في سـرادق العـزاء الـذي تقاطـرت إلـيه المدينـة الـصغيرة بشيبها وشـبّانها، نـساء ورجـالاً، وهـؤلاء اسـتغربوا رباطـة جـأش المفجوع بقتل بكره بيديه، طبعاً الجهات الأمنية سجلت

حادثة القتل ضد مجهول كي لا تتسبب في سجن علم من أعلام المدينة على الرغم من علمها أن الحقيقة تقول: لقد دهس الأب ابنه في لحظة غفلة وبتدبير قوة غيبية، ادعى صاحب الصومعة أنها استجابت له بعد أن أذاقه العراب المخضرم مر الهزيمة ورفض أن يعطيه ثمن فتوى تعب كثيراً في الوصول إليها.

لم يجد ادعاء صاحب الصومعة آذاناً صاغية لأن عدنان شاهين كان لا يزال جالساً على عرش العراب المخضرم، أما عن تلك الأرملة التي كانت ترقص وتغني فرحاً بين أرتال المشيعين وأمام سرادق المعزين فإن أياً من الحاضرين لم يهتم كثيراً بما كانت تهلوس به، إذ كان الجميع حينئذٍ على استعداد لأن يشهدوا ضدها ويؤكدوا بأيمان غليظة نابعة من القلب أن عدنان شاهين رقيق لدرجة يعجز فيها عن أن يؤذي نملة أو حتى أن يقطف زهرة، والحال هذه، كيف يتسبب بقتل زوجها في الشركة كما تدعي هذه المرأة حين تعلن أمام الملأ الحزين أن العراب المخضرم كلف زوجها بمهمة خطيرة كان متأكداً من أن تنفيذها سيودي بحياته، وما كان للعامل المغلوب على أمره أن يرفض أمراً إدارياً معززاً

بمكافأة قيمة سيقبضها بعد إنهائه المهمة وعودته منها بسلام، وليت الأرملة توقفت في اتهامها عند هذا الحد بل ادّعت وبصوت مفجوع وجهوري أن الأستاذ الذي دهس ابنه عن غير عمد كان قد دهس بكرها قبله وذلك بخطة محكمة بعد أن ارتأت جهة رسمية تشغيله في الشركة كونه الابن البكر لأنه القادر على أن يكون المعيل الوحيد للأسرة بعد وفاة والده الكهل، ولاحظ المشيعون أن المرأة اختفت بعد دقائق من أمام السرادق وما عاد صوتها الشامت يشاكس الحزن الصامت لأرتال المعزين، ورأى البعض أن اختفاءها ضروري لأن ما تحدثت به صحيح، لكن مكانه هناك في أروقة المحاكم وليس في مكان يلتهم فيه الحزن الحقيقة. ثمة رجل كان قاعداً بجانب العراب المخضرم ادّعى أنه سمعه يهلوس بأسماء ظنها ألقاباً كان يطلقها على فقيده البكر، ثم اكتشف فيما بعد أن ما كان يهلوس به هو أسماء لشركاته الموجودة في يوتوبيا أصحاب رؤوس الأموال ومحدثي الثراء.

السلم المقلوب

تصالح الأستاذ فيصل مع ستينه بعد أن أحيل إلى التقاعد وبدأ يهيء نفسه لإنجاز عملٍ إبداعي يخلده أدبياً يشغل الناس في شيخوخته كما شغلهم في شبابه وكهولته وذلك أثناء عمله صحفياً بقلمٍ سيال كان يتناول موضوعاتٍ تؤرق الناس وكان يعلم أن أثر مقالاته الغزيرة يشبه إلى حدٍ كبير ثرثرة راع مع قطيعه في جردٍ منسي، لأن الصحافة في بعض الأزمنة تصبح وسيلة لإفراغ رؤوس الناس من الغضب والاحتجاج خلافاً للاعتقاد السائد بجعل العمل الصحفي وسيلةً لإيصال أصوات الجمهور إلى المسؤولين أو من يضعون أياديهم على قوت الشعب ومقدراته. جلس الأستاذ فيصل في بيته الذي خصصه لمشروعه الإبداعي وبدأ يلملم نتف أشعاره وقراداته التي

جادت بها قريحته في العقود الماضية، وبعد تفكيرٍ اعتصر خلاله ذاكرته وتقصى أثناء العوم في بحرها العميق خبرته الطويلة في عالم الصحافة والحياة خلص إلى فكرة مذهلة مفادها أن أجمل الأعمال هي التي تغرف من البيئة وتنقل الواقع كما هو ولذلك قرر أن يسير على خطى الأديب الداغستاني رسول حمزاتوف، فيكتب رواية عن قريته الصغيرة المختبئة خلف أشجار البلوط والسنديان. لم لا وتاريخ القرية البسيط مثقل بالحكايات والأمثال الشعبية والأقوال المأثورة؟، وبعد ثلاثة أيام بدأ الأستاذ في كتابة الرواية التي أسماها(ضيعتي)، وقرر أن يتحدث في روايته عن أمان ضيعته وقلقها، عن حزنها وفرحها، عن آمال أهلها وهواجسهم، وأبعد من رأسه فكرة الكتابة عن سوزانا، ابنة ضيعته الحالمة، وقرار الإبعاد اتخذه كي لا يشوه براءة قريته وكي لا يشعر القارئ أن بكارتها فضت بسبب سلوك فتاةٍ مستهترة، وإليكم القصة التي قرر الأستاذ فيصل استبعادها من الرواية :

استيقظت سوزانا في الثامنة صباحاً، فتحت نافذة الغرفة فالتقطت أذناها صوت الطبل والمزمار، تسللت الحماسة إلى نفسها، وهمست: إن زقزقة عصافير الدوري وحفيف أوراق الأشجار الصفراء مع صفير ريح الخريف

المعتدلة تدخل الفرح إلى النفس، ولكن الصوت الآتي من الساحة يحمل التغيير والتجديد ويوحي بوجود وجوهٍ جديدة، وعلى الفور تزينت سوزانا بثياب تفر إليها ألوان الفرح وخرجت إلى عيدٍ فضاؤه ساحة القرية البعيدة عن بيتها، على الطريق هتف بها هاتف وقال لها: موسم الفراش ليس في تشرين فلماذا تخاطرين يا فتاتي؟

توقفت سوزانا عن السير ونظرت حولها فلم تر أحداً، همست تحدث نفسها: لكن الشمس دافئة والهواء منعش و... لم تكمل، عصفت بجسدها معزوفة الدلعونا الآتية من الساحة، الدلعونا معزوفة الربيع فلم التردد؟ حثت سوزانا خطاها وراحت تتمايل طربة في زواريب القرية، عاد الصوت الهاتف يثنيها عن الذهاب، انظري إلى الأشجار، أطلقي نظرك إلى الشرفات وعودي، شمس تشرين مراوغة وبرده سيغافلك ويتسلل إلى أعماقك. توقفت سوزانا، نظرت حولها فرأت الأشجار عارية وورود الشرفات ذابلة، وكانت ستعود لكن الأصوات جذبتها فتجاهلت تحذير الهاتف وقالت: ربما كان لفرح تشرين طعم آخر. انخرطت سوزانا في الجمع الراقص، سرت النشوة إلى رأسها فأطلقت العنان لجسدها، دارت، ماجت، غنت لتشرين ورقصت، وصارت في عين الكاميرا تلاحقها في رقصها

وغنائها، وترصد انفعالاتها، وتوقفت الكاميرا على ثغرها وهي تقول: قد يأتي الربيع في تشرين. وأشارت إلى المصابيح الملونة والجمع المزخرف. أثنى الأستاذ فيصل على بلاغة سوزانا وهمس في أذنها يدعوها إلى مكتبه في الجريدة، تأكدت سوزانا أن عبارة (يفرح أخيراً من يرقص كثيراً) صحيحة، اليوم رقصت كثيراً وغداً ستفرح وسترشف ما لذ لها من الرحيق.

وبعد دعوة الأستاذ صارت سوزانا الرعيل الأول، دفعها الفرح بالدعوة للتلاشي في الحلم، نزلت إلى الحلبة، وقالوا: كانت سوزانا فراشة تدور حول الطبال، ولولا الجمع الذي كان يطوقها لطارت وربما انفلتت ترقص في الزواريب، وبين البيوت وفي الغابات وعلى الأسطح والأشجار. لم تتعب سوزانا من الرقص وكانت الكاميرا ترصدها وتلاحقها، وغيبت التواءات جسدها اللدن وجوه المسؤولين التي كانت عين الكاميرا في حفلات سابقة وبدت في ذلك اليوم مومياءات مقارنة بجمال سوزانا ورشاقتها، وحين بث التلفزيون ما التقطته الكاميرا في ذلك الحفل، تساءل المشاهدون عن المستقبل الذي ينتظر نجمته؟.

باتت سوزانا على قناعة بأن ربيعها تشريني، فاستيقظت في اليوم التالي على زقزقة العصافير وحفيف الأوراق اليابسة، تملؤها الثقة بأنها سترشف ما طاب لها من الرحيق وستفرح كثيراً، تعطرت، تزينت، ومن كومة ثياب بنات الجيران استعارت ما يجملها، ومن الأحذية القديمة والجديدة انتعلت ما يزيدها رشاقة، وذهبت محملة بالأحلام والوعود، نجمة الأمس لن يرد لها الأستاذ فيصل طلباً.

قبل أن تصعد إلى السيارة هتف بها الهاتف: ستكونين الرحيق وسيمتصك حتى آخر قطرة. سخرت نجمة الأمس من ثرثرة الهاتف وشردت تصوغ حلمها ولسان حالها يقول: لن أقبل بأقل من صحفية، نعم سأكون صحفية أرافق الأستاذ فيصل في جولاته المتعددة التي يقوم بها لتغطية الأخبار والاحتفالات. ضحك الأستاذ فيصل من حلمها المتواضع وقال: أنتِ نجمة.

وعلى الفور هتف لأشخاص قال إنهم مخرجون ومنتجون ومؤلفون، ووصفهم بالأصدقاء، ثم طلب منهم دور بطولة لمسلسل أو لفيلم يسند لقريبةٍ له وهي فتاة جميلة وموهوبة، وبعد أخذٍ وردٍ مع الأصدقاء، أمطرها الأستاذ بالوعود وانتظرت دور البطولة لفيلم بدأ المؤلف

يضع له السيناريو، قبضت وعوداً ودفعت له رحيقاً يبعد عنه شبح الشيخوخة، وفي اليوم التالي كانت في مكتبه وبعد عدة اتصالات أخبرها الأستاذ بوجود عوائق حالت دون دور البطولة، منها الحذر المعروف من الوجه الجديد وعدم الثقة بتوفر الموهبة، وشهادة سوزانا المتواضعة، فمن شروط النجمة الواعدة حيازتها على شهادة التمثيل وعلى الرغم من ذلك استمر الأستاذ بالوعود وهي أدمنت تصديقها، ومرة أخرى تنتظر، وهذه المرة دوراً ثانوياً في فيلم أو مسلسل، فهذا الدور كما قال لها الأستاذ على الرغم من أنه ثانوي إلا أنه سيطلقها نجمة تسند إليها فيما بعد أدوار البطولة المطلقة. تنفست سوزانا الصعداء وانتظرت الدور الذي لم يأتِ، حرمها منه حضورها الطاغي الذي يهدد حضور الممثلة البطلة، فقالت: لا بأس، على الإنسان أن يتنازل قليلاً. وتنازلت من ممثلة لدور ثانوي إلى راقصة، فالأستاذ قال: على الإنسان أن يختار عملاً يتناسب مع موهبته وإمكاناته، وهي خلقت لتكون راقصة، وذكرها بالحفل الذي برزت فيه موهبتها في الرقص، ثم هتف لأصدقائه رؤساء فرق الرقصات الاستعراضية والدبكات الشعبية، وحدث الجميع عن راقصة لينة الجسد، طرية العود، وأعرب عن ثقته بأن

إضافتها إلى إحدى الفرق سيكون شرفاً كبيراً للفرقة. وكانت الأجوبة متقاربة: لدينا فائض عندما نحتاج نهتف لك. وريثما يأتي الهاتف نزلت سوزانا إلى الدرجة الرابعة، الدرجة الحلم، إذ قالت للأستاذ: الأحلام في أيادي الآخرين عصافير يصعب الإمساك بها وحلمي الرابع هو عصفور في يدك، حلمي الرابع أن أصبح صحفية.

الأستاذ الذي يؤمن بأن الناس درجات رفض أن تهبط نجمته إلى الدرجة الرابعة فثمة درجات من يقف عليها لا يرتفع أبداً وهو يراها نجمة، فوضعها على الدرجة الأولى بدرجة شرف. اختارت سوزانا الدرجة الرابعة قدراً تقضي فيه عمرها الوظيفي وطلبت من الأستاذ أن يساعدها فاعتذر قائلاً: عندي فائض، حين أحتاج صحفية أرسل في طلبك.

اعتقدت سوزانا أن النزول درجة أخرى سيكون لصالحها، فهي تقبل أن تكون موظفة عادية أو مستخدمة تقدم له الشاي أو القهوة على أن تكون بلا درجة تستند إليها. تبرم الأستاذ من ضعتها، أرغى وأزبد وأعلن ندمه الشديد لأنه وضعها نجمة على الدرجة الأولى، إذ قال: الجسد الجميل لا يرفع النفس الوضيعة، ثم وعدها بوظيفة مستخدمة حين يتوفر الشاغر. صرخ بها هاتفها: لن

ترشفي ولو قطرة واحدة، أمثال هؤلاء جف رحيقهم وأنتنت روائحهم. بكت سوزانا وقررت زيارة الأستاذ لكشف الأقنعة، ستقول له: أريد ثمناً للرحيق الذي رشفته، أرفض أن أكون بلا درجة، أريد عملاً يحفظ ماء وجهي.

طرقت باب مكتبه، سمعت صوتاً آخر يدعوها للدخول، فتحت الباب، رأت أمامها شاباً يبتسم، ظنت أنها أخطأت، ثورتها جعلتها ترى كل الأبواب متشابهة، خرجت من المكتب، طرقت كل الأبواب، رأت ابتسامات مختلفة، لكن لا وجود بينها لابتسامة الأستاذ فيصل، اعتقدت أنها أضاعت رشدها، هدأت بعض ثورتها، خرجت تتفحص المبنى، همست: إنه مبنى الجريدة، أنا لم أخطئ، على الأقل هذه المرة.

أيقظها من شرودها صوت البواب يقول: الأستاذ فيصل أحيل على التقاعد.

الذراع المباركة

حملت ليلى طفلها الرضيع إلى الشيخ سلمان وضعته أمامه، حلَّت قماطه الأبيض بهدوء وأخرجتْ ذراعَهُ الضخمةَ ثم رفعتها إلى أعلى. أطال الشيخ نظره إلى الذراع المتورمة ثم هز رأسه بخشوع وقال لها بلهجة خاشعة مموسقة:

ـ سيكون لهذا الطفل شأن كبير يا ليلى فانتبهي إليه وإياك إياك أن تهمليه. ارتجفت ليلى وراحت تتأتئ بعبارات لا ترابط بينها ثم سألت الشيخ دون أن تفارق نظراتها وجهه الأصفر:

ـ وذراعه يا شيخنا، هل ستكبر مع جسده أم أنها...؟!. قاطعها الشيخ حازماً بذات الصوت الخاشع المموسق:

ـ ذراعه مباركة وهو حساس جداً ويخشى عليه من فظاظة الآخرين.

أشرق وجه ليلى بالفرح ولعنت في سرها الطبيبَ الذي شخَّص مرض مسعود على أنه داء الفيل، والأنكى من تشخيصه هذا تأكيدُهُ على أن هذا الداء لا دواء له. أعادت ليلى الذراع إلى مكانها ولفتها بالقماط الأبيض وعادت بطفلها إلى البيت ورددت لدى وصولها على مسمع إبراهيم ما قاله الشيخ سلمان.

انتشى الأب وأكد صدقَ نبوءةِ الشيخ حين قصَّ عليها مرةً أخرى حلماً كان قد رآه قبل أيام من ولادة مسعود : (رأيته ملكاً يرتدي حلةً من ذهب وكان جالساً على عرشٍ من نور ومن حوله سبعةٌ من العماليق وأمامه قومٌ بيض سمر صفر سود وجميعهم عند قدميه راكعون وينظرون بخشوع إلى عرشه المضيء).

زال القلق من نفسِ ليلى وصارت تخصصُ معظم وقتها للعناية بالملك القادم أو من أجل حماية ذراع الملك القادم من أخته والضيوف الفضوليين.

كان نموُّ الذراعِ سريعاً ونمو الجسدِ بطيئاً، وبعد ثلاثة أشهرٍ من زيارة ليلى للشيخ وبينما كانت تحتضن

مسعود وترضعه ضربت الذراعُ صدرَ ليلى فتوجَّعَتْ وأطلقتْ صرخةً ألم ارتعدَ مسعودُ على إثرها فأفلت ثدي أمه وتقيأ الحليب الذي رضعه وصار يبكي ويرتجف، كبتت الأم الألمَ وراحتْ تهدهدُ الرضيعَ وتغني له لحناً ممزوجاً بالبكاء، لكن، لم يُجْدِ غناؤها ولم تنفع هدهدتها وتذكَّرتْ وهي تؤرجحه بين ذراعيها كلام الطبيب المتعلق بمراعاة وضع المريض واستعادت ذاكرتها تحذيرات الشيخ حول حساسية مسعود من المحيط الذي يعيش فيه ثم انتبهت إلى يدها التي كانت تقيّدُ ذراعَ مسعود الضخمة، أفلتتها بسرعة وعلى الفور رفع ذراعه وضرب وجه أمه فارتسمت أصابعُهُ العملاقة على وجهها، كتمت ليلى الألم على الرغم من شدته وأطلقت ضحكة مفتعلة فعاد الأمان والفرح إلى نفس مسعود المذعورة واكتشفت ليلى أن الطريقة الوحيدة لإسكات مسعود وإسعاده هي تحريك ذراعه وضرب من حوله وإفراطهم في إظهار السعادة من شدة الألم.

كبرت ذراع مسعود في بيت من الضحك، يضربُ الأمَّ بها فتضحكُ من الألم ويصفعُ الأبَ بكل ما أوتي من القوة فتصهل ضحكتُهُ في أرجاءِ البيتِ، يمارسُ على أخته

جميع أنواع التعذيب وتغرد ريما بضحكتها العذبة والدموع تتثال على وجنتيها الورديتين من شدة الفرح بالعذاب وفرط التمتع بالألم.

صار مسعود في الثالثة يريد أن يخرج إلى الشارع حيث الأولاد يلهون ويمرحون، رأت ليلى أن عليها البدء بتدريب الجيران والأقارب على كيفية التعامل مع مسعود الحساس، بدأت عمليات التدريب بذكر نبوءة الشيخ سلمان وحلم إبراهيم ورأي الطبيب في حساسية مسعود المفرطة، ثم حدثتهم عن ذراع مسعود الضخمة وجسده الذي يكاد يعجز عن حملها، بعد ذلك حذرتهم من البكاء أو حتى الاعتراض عليه أو رد الحجر من حيث أتى كأن ينتزعوا من يده أشياءهم خاصةً ألعابهم، ونصحتهم بالضحك والفرح وتقبيل اليد بعد كل ضربة يتلقونها منه.

خرج مسعود إلى الشارع وكان على الصبية الذين يشاركونه اللعبَ أن ينصروه دائماً لأنه مريضٌ وحساس ويحمل ذراعاً مباركة ومن يرفض التنازل عن انتصاره تكون ذراع مسعود بانتظاره يتلقى ضرباتها الموجعة ويضحك من شدة الألم ويتضامن الصبيةُ مع مسعود ضد الآخر الجلاد الذي لم يستمع إلى نصائح الأم الحكيمة

وبالتالي لم يراعِ وضع مسعود الحساس ولم يحترم ذراعه المباركة.

بدت ليلى راضية إلى حدٍ ما عن المعاملة التي يلقاها مسعود، وفي الوقت ذاته كانت تحتج على كل سلوك لا يراعي مشاعره الرقيقة، وقبل أن يكمل الرابعة هيأت الأم روضة الأطفال لاستقبال طفلها فشرحت لمدير المدرسة والمعلمات والأساتذة وضع مسعود وبينت لهم بأمثلة استحضرتها من ذاكرتها أن الحساسية المفرطة هي طبعٌ يتمتعُ به العظماءُ فقط، ثم ذكرت لهم نبوءة الشيخ سلمان حول قدسية ذراعه وقصت عليهم حلم إبراهيم بعد أن أضافت إليه بعض التوابل والبهارات كقولها بأن إبراهيم رأى نوراً ينزل من السماء على بطنها وبأنه سمع صوتاً يتكلم ويطلب من إبراهيم أن يطلق على الجنين الذي في بطنها اسم مسعود لأنه سيكون سبباً في إسعاد كل من حوله وعلى يده ستتحقق أحلام قديمة، وأعلنت أمام أعضاء إدارة الروضة أنه ريثما يصبح مسعود رجلاً فإن ذراعه ستصبح طويلة لدرجة قد تصلُ إلى أطراف حدود البلاد الأربعة وقوية بحيث إذا امتدت إلى كل من تسول له نفسه إزعاجه أو الوقوف في وجهه فإنها ستقسمه إلى

نصفين. كانت لهجة ليلى تحمل طابع التهديد والوعيد وعيناها تبدوان تقدحان شرراً، أما شفتاها فكانتا تمطران زبداً غزيراً. مع ذلك أبدى مدير الروضة والمعلمون تفهمهم لوضع مسعود وعاهدوا أمَّه على معاملته بحذر شديد وخصوصية لا سابقة لها في روضتهم ولا حتى في غيرها من الرياض أو المدارس. وما حصل في البيت والشارع تكرر في الروضة. وضعت المربية مسعود في المقعد الأول ولم تسمح لأيٍ كان بالجلوس إلى جانبه ليس بسبب الخوفِ على الآخر بل كرمى لذراع مسعود المباركة، هذا من ناحية أما السبب العلمي أو لنقل الطبي فيتعلق بالخوف من أن يؤدي جلوس طفل إلى جانب مسعود إلى إرباك الذراع وهذا بدوره سيؤدي إلى تعثر نموها، وعلى الرغم من ذلك فإن الملل كان يتسرب أحياناً إلى الذراع التي ضاقت ذرعاً بالمكان فامتدت ذات يومٍ إلى مقعدٍ مجاورٍ وضربت مريم وأحمد، وضع الطفلان أيديهما على وجهيهما وكانا سيصرخان ألماً لولا أنهما تذكرا نصائح المربية المتعلقة بحساسية مسعود العالية والمستقبل الذي ستصنعه ذراعه المباركة، عندئذٍ ابتلعا صراخهما وضحكا ألماً حتى انثالت الدموع على خدودهما الطرية

والناعمة، أثنت المعلمة على مسعود وأعلنت أمام الأطفال أن مريم وأحمد قدوةٌ حسنةٌ للجميع وأنها قررت نقلهما إلى مقعدٍ آخر لأن ذراع مسعود تكبر بسرعة وتحتاج إلى مقعد أحمد ومريم لتستريح عليه، اعترض الطفلان على قرار المربية وأعلنا عن تمسكهما بمقعدهما، وبما أن القرار الأخير هو دائماً لمسعود فقد أجاب الأخير ألا مانع عنده من بقاءهما على مقعدهما، وهنا ارتفع صوت المربية لتشيد بأخلاق مسعود العالية وشفافيته النادرة وعلى الفور نقلت إلى إدارة الروضة ما حدث بتفاصيله المملة وهنا ارتأت الإدارة أن عليها الإسراع في مكافأة مسعود ونشر الخبر بأقصى سرعة ممكنة وبعد دقائق أبرقت الإدارة الخبر إلى الرياض والمدارس والجامعات والكليات الحربية والمنظمات الشعبية واعتمدته وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة ، كما أذيعت تفاصيله المملة عدة مرات على آذان الأطفال ونقل إليهم بعد أيام توضيحاً حول أسباب ترك أحمد ومريم للمقعد على الرغم من طلب مسعود منهما البقاء فيه، والتوضيح يقول إن ذراع مسعود تنمو بسرعة لدرجة أنها صارت تشعر بضيق المكان وهذا ما جعلها تمتد إلى مقعد مريم وأحمد وتسبب لهما نوبات

متكررة من الضحك المتواصل وأدى ذلك إلى تعثر العملية التربوية. جلس أحمد ومريم في مقعدٍ بعيدٍ عن ذراع مسعود فيما صارت الأخيرة تمتد إلى مقاعد أخرى وتصيب وجوه الأطفال فيضحك هؤلاء حتى تنثال الدموع على خدودهم الغضة والناعمة ووصلت ذراع مسعود إلى كرسي المربية وضربت وجهها بقوةٍ أرجفت الصغار وأضحكت المربية، ورأى الأطفال دموع الفرح بالألم تغمر وجهها، ويوماً بعد يوم صار مسعود يمد ذراعه إلى آخر مقعدٍ في الفصل، يضرب المعلمة متى شاء فتضحكُ من الألمِ حتى تدمع عيناها، ويضربُ التلاميذ فيضحكون حتى يكاد لا يُسمَعُ في الفصل إلا الضحكُ والمرح. وسارت الأمور في البيت والشارع والمدرسة على خير ما يرام، ذراع مسعود تضرب الجميع والجميع يضحكون بصوتٍ يمنحُ الأمان والفرحَ للملك الحساس. استمر الوضع على هذه الحال إلى أن جاءت إلى المدرسة تلميذة جديدة اسمها جلنار. كانت جلنار فتاة رقيقة كزهرة لوز برية فهي نحيلة يتلون وجهها بالحمرة عند حدوث أي موقفٍ أو أثناء أي انفعالٍ، ومهما كان بسيطاً أو عابراً، ولذلك اعتاد الجميع على رؤية حمرة خديها وبريق عينيها ورجفة شفتيها كما أنها لم

تكـن قـد اعتادت بعد على الضرب أو الإهانة من أحد ولم تكـن لتحـتمل الـسب أو الـشتم مـن أيٍ كـان، وحـين رأت مـسعود في الـباحة ارتـسمت علـى وجهها علائـم الدهـشة والـشفقة فاحمـر خداها وسـال عـسل شفتيها ولمعت عيناها ببريقٍ عجيبٍ، وبعـد دقائـق بدأ الـصغار يقتربون من الطفلة ويعرضـون عليها ألعابهم ويقدمون لها من زادهم قطع حلوى شـهية ولم يكونـوا ليعلموا أن قـدوم هذه الطفلة إلى روضة مـسعود هـو فـأل سيئ عليه، فحين دخلت التلميذة الجديدة إلى الفـصل وجلـست علـى المقعـد الأول، دخـل مـسعود كالعـادة متأخـراً فرأى جلنار جالـسة على مقعده فما كان منـه إلا أن مـدَّ ذراعـه العملاقـة وضـربها علـى وجهها فسال بؤبـؤ عينـها اليـسرى علـى خـدها الأيـسر، صـرخت الطفلـة وبكـت وضربت مسعود بحقيبتها ففوجئ الأخير بما حدث وشعر برعبٍ شديدٍ جعله يرفع ذراعه بكل ما أوتي من قوة ويضرب جلنار وكأنهـا صـخرة صوان، فسال بؤبـؤ عينها الثانـية علـى خـدها الأيمـن وازداد بكاؤهـا، ومـع ضـربة الـذراع الثالـثة وقعـت جلـنار علـى الأرض وراحـت تلـتقط أنفاسـها بـصعوبة. خافـت المعلمـة علـى شـعور مـسعود الحـساس فـتدخلت وحاولـت كـمَّ أنفـاس جلـنار، لكـن

الطفلة استمرت في التنفس ولم تتوقف ذراع مسعود عن ضرب الطفلة المضرجة بالدم، عندئذٍ علمت المعلمة أن تدخلها جاء متأخراً، لقد تمكنت هذه الطفلة الوقحة من إيذاء مشاعر مسعود وستتال المربية بسبب إهمالها عقوبةً كبيرةً.

وبعد دقائق من الحادثة المروعة دخلت ليلى إلى الفصل ورأت بأم عينها حال فلذة كبدها، احتضنته وأعلنت أن هاتفاً نادى بها وأخبرها بالمصيبة التي حلت بطفلها الحبيب، بعد ذلك راحت تكيل التهديدات للمدير والمربية والتلاميذ بعد أن اتهمتهم جميعاً بالتآمر على طفلها المسالم الحساس، ثم أشارت إلى جلنار المضرجة بالدماء واستغربت ترك المجرمة أمام مسعود، وبنبرة تضج بالغضب والاحتجاج طالبت برميها على أقرب كومة قمامة وإلا....!

الثورجي

أوقف ما كان يصر على تسميته سيارة على يسار الشارع، نظر من خلال زجاجها المكسور أمامه، ثم قفز من المقعد المهترئ، ووقف أمام الصيد الثمين وأثناء ذلك تساءل إن كانت سيارته ذات الثلاث عجلات تتسع لهذه الوفرة من العبوات الكرتونية، سؤاله هذا يعرف جوابه، لكنه الفرح الذي يشبه فرح صياد أمن البحر على شبكته المهترئة حالماً بصيدٍ لا يتجاوز بضع سمكات صغيرة يسكت بها جوع أسرته، وإذا به يستدعي بضعة رجال لإخراج الشبكة المثقلة بكل أنواع السمك، يفرشها ويجد فيها ما يزيد عن حلمه ربما بعشرات المرات.

لا يحتاج بشير لآخرين يجمعون معه العلب الكرتونية، فهو اعتاد أن يعمل وحده وبهدوء دون أن يتبرأ من هويته، ويردد: الثورجي الحقيقي يفكر، يخطط وينفذ وليس كما يشاع يصيح فقط ويهتف ويقفز، ينتشي بشير حين يناديه أحد العابرين بالثورجي، عندئذٍ يرفع جسده برشاقة على طرف صندوق عربته، يجلس ويخرج من جيب سترته المهترئة كيس تبغه ودفتر سجائره، ينزع منه ورقة شفافة وكحالم يفرش عليها التبغ المفروم ثم يحولها بيديه ولعابه إلى لفافة أسطوانية الشكل، يشعلها ويراقب أدخنتها البيضاء مستسلما لنشوة تطول أحياناً يرى خلال ضبابٍ كثيف بشير حين كان في الثامنة عشر ربيعاً يمور أملاً وحلماً وضجيجاً، لكن هذه النشوة غالباً ما يقطعها عابر فضولي يسأله: هي يا ثورجي، ماذا أعطتك الثورة؟ صندوق بثلاث عجلات أم علب كرتون؟. الويل للعابر إذا أمسكت به يد بشير، هذا يحدث فقط إذا أراد العابر الاستماع إلى حديث بشير عن الثورة والدور الذي قام به حين كان شاباً.

دار بـشير حـول الـصيد الـثمين سـت دورات، ووضـع أثناء دورانـه خطـة للعمـل وقـرر أن يقـوم أولاً بجمـع العبوات الكـرتونية المتناثـرة علـى الرصـيف، بعـد ذلـك سـيبدأ بتصنيفها، الكـبيرة مـع بعـضها ثـم الوسـط ثـم الـصغيرة، والـسليمة، والمهـشمة، وعـبوات المـواد الغذائـية، عـبوات المـنظفات، عـبوات الـصناعات التحويلـية... إلخ. والخطـوة التالـية يـستعمل فـيها المـشرط مـن أجـل إزالـة اللـصاقات البلاسـتيكية ثـم يحـول العـبوات المكعـبة الـشكل إلى كرتون مسطح وأخيراً يقوم بنقلها إلى الجهة الأخرى حيث الـسيارة أم الـثلاث عجـلات تقـف كالعـروس، يكـدس حصاده في الـصندوق، ثم يـربطه بالحبل، و يـودع المسجل أنغامـاً ثـورية ويـردد كلمـات الأغانـي كـيفما اتفـق، وبعـد ذلك يقود السيارة على يسار الطريق مستفزاً عن غير قصد سـائقي الـسيارات الفخمـة متجاهـلاً شـتائمهم وتهديـداتهم: هـي! أنـت أيهـا الأبلـه ابتعد وإلا أرسلناك أنت والخردة التي تقـودها إلى معمـل الـصهر. هـذه العـبارة كـان يـسمعها عـشرات المـرات لكـنه لم يكـن يبالـي فهـو علـى ثقـة بـأن الـثورة تحمـيه هـو وأمـثاله من أبناء الطبقة الكـادحة. تمايل بـشير فـرحاً وهـو يـدور حـول العـبوات الكـرتونية المتناثـرة

أمام مبنى المؤسسة الاستهلاكية، شعر بالغبطة، همس: الحمد لله ثمة إقبال على إنتاج معامل الثورة، ثم أحنى ظهره وبهدوء راح يجمع حصاده، انزعج من أقدام المارة، تساءل: كيف يجرؤون على الاستهتار بصيده؟ أم أنهم لا يرون؟ ترى كيف يعاملون ثمار بساتينهم؟ منتجات مصانعهم، كراسي المسؤولية؟ غضب بشيرحين رأى فتى يضرب بعقب حذائه عبوة سليمة وملونة، صرخ به: هي أنت، ابتعد، دع صيدي، دع طعام أطفالي وثيابهم و...، أعوذ بالله ما هذا؟ لا يدعونني وشأني، السيارة يسمونها خردة والعبوات الكرتونية تصبح كرة تتقاذفها أقدام المارة أو تدوسها، ما هذه الحياة؟ بعد عقود من انطلاقة الثورة أجد مكاناً أعيش منه فإذا بهم، أعداء الثورة لي بالمرصاد!.

آمن بشير منذ فتوته بالثورة وكان بوقها الذي لم يتعب أبداً، لكن لا أرض عنده ليعمل بها، ومحاولاته في إيجاد وظيفة برتبة مستخدم في إحدى معامل الثورة أو بواباً يحرس مدارسها باءت جميعها بالفشل، وذات عصر وبينما كان يتسكع على الأرصفة ويحصي منجزات الثورة

استوقفه منظر العلب الكرتونية المتناثرة بفوضى على الأرصفة، قال: لا يجوز أن تشوه قشور الثورة منظر الشارع، وعلى الفور بدأ بجمعها، وفي اقل من ساعة كان الشارع نظيفاً وبشير واقف أمام كومة من العلب الكرتونية المختلفة الأحجام والأشكال يتساءل أين سيذهب بها؟ هل يحرقها؟ أم يوقف سيارة يعبئها في صندوقها ثم يرميها على إحدى أكوام القمامة؟ قبل أن يصل بشير إلى قرارٍ أخير بشأن العبوات الكرتونية أو ما أسماه بقشور الثورة، وقف إلى جانبه رجل يبدو عليه خير الثورة واضحاً، قال له: أحسنت يا ثورجي، لنعقد صفقة، أنت تجمع العلب الكرتونية وتصلحها وأنا اشتريها منك.

لم يصدق بشير ما سمع، لكنه لم يستغرب أن يكون لقشور الثورة ثمن، أضاف الرجل: أنا بانتظارك في متجري، متجري خارج المدينة وتحديداً هو شرق المدينة. ذهب الرجل وتنفس بشير الصعداء، هتف: أخيراً يثمر إخلاصي للثورة، وراح يقفز في مكانه كالمجنون، ألهمه الفرح بشعار جديد ردده بصوت عال: الشارع لمن يجد فيه شيئاً يقتاته. وفسر إغفال الثورة للشعار الذي اكتشفه في

ذلك اليوم بأن الشوارع حينئذٍ لم تكن غنية هذا الغنى ولا واسعة هذا الاتساع، وأعلن بطريقته أن الثورة ولود وهي صالحة لكل زمان ومكان، الأرض لمن يعمل بها، المعمل لمن يديره، الكرسي لمن يحسن استغلاله، الغابة لمن يقطع أشجارها، البحر لمن يصطاد سمكه، والشارع سيكون له وحده وذلك في وقت تكون فيه صالات البيع والمخازن قد باعت بضاعتها ورمت القشور في الشارع وعلى الأرصفة، وبما أن بشير لا يملك ساعة فقد كان يستعين بالشمس، وفي الشتاء كان يستدل على الوقت بلون الفضاء. ولذلك فهو لا يحب الشتاء كثيراً، ليس لأن الشمس فيه تظهر قليلاً وتغيب باكراً بل لأن المطر يخرب حصته من خيرات الثورة.

كما أن طقس بشير اليومي لا يشبه طقس الفلاحين ولا طقس العمال والموظفين ولا حتى الصيادين، يصل إلى البيت مساء ويفرغ صندوق السيارة من حصاده ينقله إلى مصنعه الصغير، يتفحص العبوات عبوة، عبوة، يصلح المهشم منها ويبحث في زواياها عن بقايا مفترضة، حبوب، أرز، سكر، شاي، وبعد الانتهاء من البحث والإصلاح يعيد

العلب إلى صندوق السيارة ويوصلها إلى التاجر ليعود بعد ذلك إلى بيته وربما صادفت عودته عند الفجر أو قبل الضحى بقليل وبعد وصوله بدقائق يرتمي على سريره ويستسلم لنوم عميق ، يخرجه منه صوت زوجته وهي توقظه في الرابعة تماما من عصر كل يوم، يتناول طعامه على عجل ويصعد إلى سيارته ذات الثلاث عجلات وينطلق إلى عمله.

أزعج بشير قول الآخرين عن سيارته بأنها خردة، دار حولها ثلاث دورات همس: أقول الآن أكثر من أي وقت مضى، كانت ساعة شراء هذه السيارة مباركة، ما بها؟ أنزه بها زوجتي وأولادي وفي صندوقها أنقل حصادي، ماذا يريد الإنسان أكثر من ذلك؟ صحيح الناس مملوؤون بالحسد، تركت لهم السماء والأرض والبحر والغابة والمعمل وكرسي المسؤولية وهاهم يقاسمونني الشارع في وقت يكون ملكاً لي.

لا يريد بشير تذكر الماضي القريب حين كان يطرق أبواب بيوت أركان الثورة ويقول لهم: أنا الثورجي بشير، أنا من المؤيدين، استفيدوا من خبرتي، أنا عملة نادرة، أنا الباقي من صنف انقرض، استغلوا إمكاناتي. عروض

بشير كانت كثيرة وخدماته كانت مجانية لمن أسماهم ظهراً يستند عليه، ويوماً بعد يوم وبسبب إخلاصه الشديد للثورة أصبح بشير شخصية معروفة في المدينة، ويظن البعض أنه أهم رموزها على الرغم من شيوع رواية تقول أنه في عصر ذلك اليوم الحار وكان الصيد أكبر من حلم بشير بكثير مما اضطره للبقاء في الشارع حتى ساعة متأخرة من الليل لينهي عمله، وكان عليه أن يستريح قليلاً ويتناول وجبة خفيفة ثم يبدأ بوضع حصاده في صندوق العربة. قال الراوي: تلك الليلة لم تكن مهمة فقط لأن بشير اختفى بعدها، بل كذلك لأن النار التهمت حصاده والأدخنة ملأت الشارع وأعاقت السير وأزعجت العابرين، وقبل حدوث هذا كله كان بشير قد بدأ ينقل بعض العبوات إلى سيارته ذات الثلاث عجلات، ثم... حصلت مشادة بينه وبين سائق سيارة فخمة ممن كان يصفهم بالعملاء والرجعيين وأعداء الثورة، هذه المشادة ليست الأولى، إذ اعتاد بشير على سب هؤلاء وشتمهم له واحتقارهم للكادحين من أمثاله. لنعد إلى تلك الليلة حيث الحصاد يتجاوز الحلم بكثير وحمل بشير ثقيل منعه من قطع الشارع بسرعة، عند ذلك أوقف السائق السيارة

الفارهـة، تـرجل مـنها، أمـسك بـشير مـن كـتفه، صـفعه، وقـال الـراوي: سمعـت صـوت الـصفعات، صفعه ذلك العابر حتـى تعـب ثـم ألقـاه على الرصيف كخرقةٍ باليةٍ، بعد ذلك حمـل الـسيارة ذات الـثلاث عجـلات ورماهـا تحـت الجـسر، بعـد لحظـات اشـتعلت الـنار في الكومة الـكرتونية، ونسي العابرون بشير وانشغلوا بإطفاء النار.

وعـند الـصباح بحـثوا عن بشير فلم يعثروا له على أثر، ولم يجـدوا سيارته ذات الـثلاث عجلات تحت الجسر. هذه الـرواية تـناقلها سـكان المديـنة لمـلء فـراغهم وتغـيير روتـين حـياتهم وهـم الآن يعـتقدون أنـه لا يـزال في الـشارع يجمـع العلـب الـكـرتونية في الـوقت المحـدد، يـنقلها إلى صـندوق سـيارته ذات الثلاث عجلات، وما يؤكـد هذه المقولة قولهم بـأن الأنغام الثورية ما زالت تقتحم نوافذ بيوتهم، تستفزهم وتـؤرقهم وتذكـرهم بـأحلام لهـم لم تـتحقق. وادّعـى أحـد وجـوه المديـنة أن بـشير مـازال يطـرق بـاب قـصره ويقـول لـه: استثمرني قبل أن تفقدني.

لا يمكــن الــرد علــى اعــتقاد ســكان المديــنة ولا تـكـذيب المـسؤول الـذي ادعـى أن بـشير مـا زال يطـرق بـاب

قصره لأن شارع المدينة الرئيسي نظيف، ويقال بعد تلك الحادثة التي ضرب بها واحترق فيها حصاده صار يستيقظ فجراً ينظف المدينة من العلب الكرتونية ويحملها على كتفه إلى دكان ذلك الرجل الذي التقاه في بداية عمله.

أحلام درويش

استهجن الجميع وجود حمار في حديقة المبنى الفاره وتملك الغيظ والغضب مدير المؤسسة التنويرية وسارع إلى إطلاق سراحه وإبعاده بعد أن فك الرسن عن جذع شجرة الكينا الكبيرة.

خرج درويش من المحاضرة فلم يجد حماره، بحث عنه في الحديقة المحيطة بالمبنى فلم يعثر له على أثر، انطلق إلى الشوارع يبحث عما كان يسميه سيارتي التي لا تتعطل، ذهب إلى سوق الخضار ظناً منه أن حماره ينتظره في المكان المعتاد، وحين لم يجده قدر أن يكون قد سبقه إلى القرية. لم يكن درويش يحمل شيئاً في يديه ورأى أن العودة إلى بيته سيراً على قدميه خير من انتظار سيارة قد لا تأتي أبداً لأن الشمس آذنت بالمغيب.

اتجه درويش إلى ضيعته الصغيرة دون أن يراوده ندم على دخوله إلى مركز ثقافي أول مرة من أجل الاستماع إلى محاضرة وصفها بالقيمة، أما عن ظروف دخوله فهذه قصة أخرى بدأت أحداثها بعد أن انتهى درويش من إخراج ثماره من الصندوقين الخشبيين المحملين على ظهر حماره ثم تنسيقها فوق بعضها عند مدخل سوق الخضار بحيث تكون ثمار البندورة مصفوفة على شكل هرم وإلى جانبها ثمار الخيار والباذنجان وهذه جميعها تخطف أبصار العابرين ببريقها الذي يؤكد أنها خالية من الأمراض ومروية من مياه الينابيع النقية. شيء آخر خطف هذا الصباح أبصار العابرين فصاروا ينظرون إليه ثم يتوقفون أمامه يهمهمون وهم يقرؤون ثم يتابعون سيرهم إلى هدفهم الرئيس، ترى ما الذي يوجد على ذلك العمود الاسمنتي الذي يقع في مدخل السوق؟. ترك درويش بضاعته التي لم يتخلخل بعد شكلها الهرمي ونظر إلى الملصق فرأى فيه سلة مليئة بكل أنواع الخضار والفواكه: بندورة، خيار، باذنجان، عنب، تفاح...، تهجأ الكتابة المتناثرة على الورقة فعلم أن محاضرة ستلقى في المركز الثقافي تتناول السلة الغذائية ورأى أن الموضوع يهمه أكثر من غيره بل هو اختصاصه الوحيد ولذلك قرر أن يبيع أهراماته الغذائية

الـثلاثة بـسعر يقـل عـن الـسوق لـيذهب إلى المحاضـرة الـتي سـيلقيها مختص بشؤون الأغذية الزراعية. وقف على مقربة مـن منـتجاته الـتي قطفهـا هـذا الـصباح مـن حقلـه الـصغير وراح يدعـو الـزبائن لانتهاز الفرصة قبل فوات الأوان وشـراء بـضاعته الـبلدية المقطـوفة لـتوهـا ، وبعـد سـاعتين أفلـح في بيعها جميعاً ثم جرَّ حمارهُ إلى مدخل السوق والتهم الأخير بقايـا الخـضار والفـواكه المتعفـنة ثـم جـره إلى المركـز الثقافي وربطه إلى جذع شجرة الكينا.

كـان الليل قد بدأ ينـشر غلالته الرمادية حين كـان درويش علـى مـشارف القـرية وقـدر أنـه بعـد أن يطمئن على الحمـار سيجلس مع مطيعة ويلقي على مسمعها المحاضرة، قـد لا تـستوعب مـا سـيقوله لكـنه سـيحاول أن يقـرب إلى ذهـنها المشغول بأمور البيت وبهموم الأولاد أهمية المحاضرة وضـرورة البحث عن طريقة أخرى للعيش وسيصف لها هذا اليوم الـصيفي الحـار باليوم المشهود لأنـه أيقظ درويش من حلـم فلاحـي لـو اسـتمر في الـركض وراءه لـوجد نفسـه بعد فـترة مـن الـزمن خـارج العـالم كـله، لقـد كـان جريئاً حين سـأل المحاضـر إن كـانت الحبة التي ستبدل بسلة الفواكه والخـضار سـتزرع في جميع الحقـول؟ وحـين سمـع المحاضـر الـسؤال أثنـى علـى درويش ووصفه بالمستمع الجيد ثم أكد

أن الحبة ستصنع في المعامل والمختبرات تماماً كحبوب الفيتامينات لكنها ستكون مغذية لدرجة تنتفي فيها الحاجة بعد اليوم إلى حرث الحقول وزراعتها وريها، فقط يدخل الزبون إلى الصيدلية أو البقالية ويطلب الحبة ثم يبتلعها فتوفر عليه كثيراً من النقود والجهد والوقت. قدر درويش أن مطيعة ستتهمه بالتخريف والجنون وفي حال استطاع أن يبسط لها الفكرة فلابد من أنها ستسأله: ومن أين سنعيش؟ وماذا سنطعم أولادنا وكيف سنرسلهم إلى المدارس؟...

يعترف درويش أن هذه الأسئلة شغلته أثناء استماعه للمحاضرة، لكنه الآن يرى أن ما يشغله سيصبح عما قريب شغل الكثيرين فهو لم يكن الفلاح الوحيد الذي يملك حقلاً صغيراً يحرثه في الربيع ثم يزرعه ويعتني بنباتاته حتى إذا ما نضجت ثمارها قطفها وحملها إلى السوق ليبيعها، ونشاطه هذا يستمر بعد أن ينظف الحقل من بقايا النباتات الصيفية، يحرثها وينثر مكانها بذور النباتات الورقية ثم يحملها إلى سوق المدينة، لكن والحق يقال: لقد اكتسب سمعة طيبة في السوق بسبب جودة خضاره وطزاجة نباتات حقله الورقية ولهذا فإنه يعود دائماً إلى ضيعته الصغيرة قبل غيره من الفلاحين باستثناء هذا

اليوم فهاهو يصل إلى بيته ليلاً، يقف على المصطبة ينصت إلى الأصوات عله يسمع وقع حوافر حماره أو نهيقه: ماذا سأقول لمطيعة حين تسألني عنه؟ فتح درويش الباب تاركاً مصير حماره لعدة احتمالات: إما أن يكون في الحقل أو على الطريق أو... وحتى بوجود الاحتمال الأخير الذي تمنى ألا يكون قد حدث فإن حماره مثل السلة التي وضعها المحاضر على الطاولة. وقال إن العالم سيجعلنا نستعيض عن كل هذه الفواكه بحبوب بحجم حبة الأسبرين، كذلك الحمار ثمة بديل له لا يعرفه الآن: بماذا سأستعيض عن الحمار؟ سأل درويش نفسه وهو يتسلل إلى بيته الطيني، وحين التقت عيناه بعيني مطيعة قرر ألا يؤجل البحث عن بديل لحماره في حال اختفائه أو موته. جلس الزوجان مع أطفالهما الثلاثة يتناولون طعام العشاء وكانت المحاضرة المذهلة حاضرة مع لقيمات الزيتون والبيض واللبن.

ـ تخيلي يا مطيعة نفسك تستعيضين عن كل هذا الطعام بحبة واحدة مع نصف كأس ماء.

لم تعجب فكرة الحبة الواحدة مطيعة فهي ترى في هذه (اللّمة)، كما كانت تردد، أسعد لحظات حياتها، لكن درويش ذكرها بأن العلماء ليسوا مشايخ يقولون ما

يـريحهم ويـريحنا فالعلمـاء يعيـشون حـياة زهـد حقيقـية يمـضونها في مخابـرهم وسـط روائـح تجـاربهم وجحـيم خيـباتهم المتكـررة أحـياناً لـيجعلوا الحـياة تـسير بخـط تصاعدي أي أنه يجد نفسه مضطراً للاستغناء عن حماره وربمـا عـن قطعـة الأرض الوحيدة القـريبة من النهر، وجاءه السؤال الذي توقعه:

ـ ومن أين سنعيش؟ وكيف...؟

ـ أرى أن نبـيع الحمـار وقطعـة الأرض وأؤمـن بثمـنهما عملاً مريحاً يدر علينا مالاً يكفي لتأمين كل احتياجاتنا.

أثنـى درويـش علـى نفـسه لأنـه اسـتطاع أن يـسكت مطيعة لدقائق قليلة، سـألته بعدها إن كان لديه مشروعٌ ينوي إنشاءه بثمن الأرض والحمار؟ وعلى الفور أجابها:

ـ وظـيفة، أقـصد أن أصـبح عـاملاً عـند الدولـة هـو أضمن مشروع.

هذا الجواب استحضرته ذاكرته من حديث دار بينه وبـين فـلاح الـتقاه في الـسوق وتـناولا خلالـه المـردود الهـزيل الـذي يحـصلان عليه مـن عمـل متواصـل في الأرض ووقـوف سـاعات طـويلة في الـسوق يـنادون علـى البـندورة الـبلدية والـبقدونس المـسقي بمـياه النـبع وفي نهايـة الحـديث قـال

الفلاح لدرويش: إن أشرف عمل يحظى به أمثالنا هو عمل عند الدولة، مستخدماً، سائقاً، عاملاً في البلدية... إلخ.

أعجب درويش بالجواب وقرر أن يبحث عن عمل قبل أن يبدأ المحاضر وجماعته بالاستعاضة عن سلة الخضار والفواكه حبة صغيرة وفكر بصوت عال أمام مطيعة والأولاد بأنه سيبحث عن شارٍ للأرض وحين يجده سيعرض ثمنها على أحد المتنفذين مقابل وظيفة حكومية واستبعد فكرة شراء دكان صغيرة كما حلم ذات مرة بصوت عال أمام جاره فما كان من هذا إلا أن نصحه بأن يصوغ فكرة على قياس حماره وأرضه الصغيرة.

قفزت إليه الفكرة في ذلك اليوم بعد ضجر بسبب الكساد الذي جعله يراقب دكاناً يجلس فيه رجل كهل يدخل إليه الزبائن بكثرة وطلباتهم يقوم بتلبيتها صبيه الأجير بينما هو يدور على كرسي أسود يقبض النقود ويضعها في درج طاولته، إنه لا يتعب نفسه حتى بالوقوف، وقدر أن جارور هذا الكهل يمتلئ مساءً بالنقود ثم يعود إلى بيته بكامل قوته وعافيته وبالتالي فما إن يذهب أولاده للنوم حتى يدخل هو وزوجته إلى سريرهما فيظل يضاجعها حتى صباح اليوم التالي أي قبل أن يأتي إلى دكانه بساعة على الأكثر، وإذا صار عنده دكان كهذا الذي يقابل

السوق فسيقضي الليل سهراناً مع مطيعة فيروي ظمأها وينسيها نهارات الفلاح المتعبة ولياليه التي يكون فيها كالموتى فلا يضاجع امرأته ولا يسعدها.

وأعاده إلى البسطة المخصصة لخضاره اليانعة صوت زبون يشير إلى هرم الباذنجان:أريد كيلو باذنحان

نامت مطيعة على صوت درويش وهو يحدثها عن المحاضرة التي ألقيت في المركز الثقافي ولم تسمعه يردد عبارة سمعها من جيرانه في السوق أو من زبائن دائمين: المائدة والمرأة، والمائدة قبل المرأة.

من هو صاحب هذا القول؟ سأل نفسه وهو ينظر إلى وجه مطيعة الأسمر المشدود، هذه هي العادة، عندما ألح على تذكر الأشياء تهرب مني، إن لم أتذكر اسم صاحب هذا القول هذه الليلة سأسأل عنه غداً في السوق كائناً من كان صاحبه فهو سيأخذ بيدي إلى بر الأمان فأصبح موظفاً قبل أن ينجح العلماء في تجربتهم الجديدة. وفي حالة نجاحهم لن يعود للأرض أية فائدة تذكر وكذلك الحمار ما حاجتي إليه بعد أن أنتهي من قطف ثمار هذا الموسم؟.

استيقظ درويش في الساعة الرابعة على صوت مطيعة وخرجا سوية إلى الحقل يقطفان معاً ثماره اليانعة وحين انتهيا بدأ درويش بفرزها وركضت مطيعة إلى الزريبة لتأتي بالحمار إلى الحقل فلم تجده، بحثت عنه طويلاً، تذكرت أن زوجها أتى ليلة أمس ولم يأت على ذكره أو يطلب منها أن تضع في مزوده التبن والشعير، هل باعه؟ سألت نفسها وهي ترى درويش يحمل (خرج) الخضار على كتفه واعتقدت أنها كانت تحت تأثير خداع بصري فركزت نظرها عليه وتأكدت أنه هو وليس الحمار من يحمل خرج الخضار، ترى هل باعه أم...؟. كانت ستلحق به لتسأله عن حماره لولا أنها تذكرت أن زوجها الآن تحت حمل يرهقه ولن يستطيع الرد عليها لكنها اطمأنت حين سمعته يعدها أنه لن يتأخر هذا اليوم عن البيت، سيبيع ثماره بثمن يقل عن تسعيرة السوق، بعد ذلك سيبحث عن شارٍ للأرض.... وسمعته يسوف لكنها لم تستطع التقاط تسويفه حتى آخره لأنه ببساطة بات عاجزاً عن التقاط أنفاسه وعلى الرغم من ذلك بدت مطيعة سعيدة لأن زوجها بدأ يفكر ويضع خططاً للمستقبل، وهذا يعني أن حياتهما ستصبح أفضل بكثير، وقناعتها هذه لم تتغير بعد عودة درويش إلى البيت بدون الحمار لأن

المسكين ضربته سيارة على الطريق المؤدية إلى القرية وهو جثة هامدة على بعد أمتار من القرية. وأكد لها أن المستقبل لهم وستصبح الحياة أحلى بعد أن يشتري حماراً قوياً كالذي هشمته سيارة سريعة في الليل ولن يبيع الأرض لأن ثمنها لا يكفي لملء مائدة بالطعام يدعو إليها المسؤول الذي سيوظفه كما أنه سيقطع يد كل من يحاول لمس خصلة من شعرها الأسود الطويل، وحين وضعت مطيعة طبق الطعام على الحصير جلس درويش مع أولاده وقال لزوجته: يبدو أنني غفوت قليلاً أثناء إلقاء المحاضرة لأن الحبة التي حدثتك عنها مساء أمس ستصنع من خضار حقلنا وفواكه بساتين جيراننا.

كان درويش متعباً ولم يستطع إخبار مطيعة بالبقية المتعلقة بعبارات اللوم والتقريع التي انهالت عليه من جيرانه أصحاب الحقول الصغيرة حين أخبرهم بما ينوي فعله ليصبح موظفاً محترماً.

فتى من هذا الزمان

كان أحمد شاباً عادياً لا يختلف عن أبناء عصره بشيء، له عينان وفم وأذنان ويدان وساقان و... باختصار يحتفظ الفتى بجميع أعضائه حتى كليتاه ما زالتا في مكانهما ولم يتخل عن أي منهما على الرغم من إغراءات الإعلانات الموزعة على جدران المدينة وهذه جميعها تتبارى لرفع المبلغ الذي ستدفعه للمتبرع.

يسير أحمد مثل الناس في الشوارع، ينظر إلى المارة ويرفع يده شاكراً سائقي السيارات الذين لا يسرعون كثيراً ولا يلوثون بدلته الوحيدة بالوحل، ويتوقف أحياناً أمام واجهات المحلات الزجاجية ينظر فيها إلى بذلته القديمة وحين يطمئن إلى نظافتها وخلوها من الثقوب ينتقل إلى قامته المتوسطة ثم إلى وجهه يتحسس بشرته

الرقيقة بأصابعه الرخوة ويحمد الله أنه مازال بوجه واحد فقط ولم يفقد بعد أياً من ملامحه.

يحب أحمد الطبيعة البكر وحين يشعر بحزن أو إحباط يهرب من صخب المدينة إلى أحضان الطبيعة، وأحياناً يضيع بين أدغالها وحين يعثرعلى نفسه الضائعة يعود بها إلى البيت، وذات يوم قرر أن يكون شخصاً مهماً، وعلم أن الإنسان يكون مهماً حين يعمل وينتج ويفكر، وتذكر أنه لا يملك أرضاً ولا محلاً تجارياً ولا شركة كبيرة أوصغيرة، حزن أحمد لأن قراره صعب التحقيق، وانطوى على نفسه وصار لا يخرج من غرفته إلا لتناول الطعام أو لينظر إلى حمامات الجيران وهي تنقر الحب والديدان، حزنت الأم لحال ابنها وأخبرته أن ثمة أناساً يعملون وليس لديهم شركة أو محل تجاري ولا حتى أرض، وهؤلاء يملكون جسداً لم يمرض بعد.

خرج أحمد ليبحث عن عمل، وبما أنه يحب الطبيعة فقد اختار أن يعمل مزارعاً في الأرض، لكنه فوجئ بأصحاب الأراضي يرفضونه بحجة أنهم يريدون مزارعاً قوياً وخبيراً بالطبيعة وبالمواسم، وهو لايكاد يسقي شتول الحبق والبنفسج المزروعة عند مدخل بيتهم الصغير إلا

بـشق الأنفـس، وكــان أحمـد سـيعود إلى غـرفته ليـسجن نفسه مـرة أخـرى بـين جدرانها لولا أن أمه أخبرته أن العمل الزراعـي مـرهق ولا يسد الرمق وعليه أن يفرح لأن أحداً لم يقبل بتشغيله في أرضـه فهناك شـركات تشغله إذا امتلك ورقة ما.

فـتح أحمـد درج طاولـته، أخـرج مـنها ورقـة قديمـة وقـرأها " شـهادة الدراسـة الإعدادية " وضعها في جيبه وراح يطـرق أبواب الـشركات ويعـرض عليهم كنزه الثمين، لم تكــن الــورقة وسـيطاً يحظــى بـثقة مــدراء الــشركات أورضــاهم، فهــي صـفراء تـتوزع علـيها حــروف رمادية، ونمـوذج كهذا لم يعد مـرغوباً في زمـن يريد أن يقلب ظهر المجـن لكـل مـا هـو عتيق، إذ يـصفهم بعضهم بالبالـي أو الخـشبي، نعـم، فالـزمن الحالـي يحـتاج إلى بـريق ولـيونة ورشـاقة، وهـذا مـا كـان ينقص الورقة وحاملها، وصارحه بهذه الحقيقة أحد موظفي ما صار يسمى بالموارد البشرية وذلـك بعـد أن نظـر إلـيه ورأى فـيه خامـة جـيدة يمكــن استثمارها بسهولة، فأعضاؤه كاملة لم تمس ربما حتى مـن قبل امرأة ورأسه يعمل بما يملى عليه، وقدر أن تكون كتلة جسده مطواعة، فقط هذه الورقة الصفراء المجعدة

تقف عائقاً أمام استثماره، هذا ما أضمره ذلك الموظف الأنيق الذي يرتدي بدلة رسمية وربطة عنق ونظارة بالكاد تغطي عينيه الصافيتين.

أعاد إليه الورقة المهترئة ونصحه بتصويرها لتناسب المرحلة الحالية وتتناغم مع مستندات الشركة وأوراقها الجديدة الناصعة البياض. عاد أحمد في اليوم التالي مع ورقته، وضعها أمام الموظف وهو يصفها بالجديدة لدرجة أنه يستطيع أن يذبح بها عصفوراً إذا أراد، يا للتشبيه البليغ!. همهم الموظف وهو يضع الورقة أمامه ثم يفتح مصنفاً ويضعها بين دفتيه وينظر إلى أحمد الواقف أمامه، وعلم الشاب من الموظف أن هندامه يجب أن يكون كالورقة.

قاطعه: هل تقول إنني يجب أن أصور ثيابي لتعود جديدة كما الورقة بعد أن صورتها؟

ـ لا، لا، ليس هذا ما قصدته فهم لم يخترعوا بعد جهاز تصوير يجعل الثياب جديدة.

استغرب أحمد ما سمعه وعلم من الموظف أن الثياب ليست بأهمية الورق، ولذلك ترمى بعد أن تبلى ويُستبدل بها قماش جديد وزي مبتكر.

فتح الموظف درج مكتبه وناول أحمد ألفي ليرة ليشتري بها ثياباً جديدة تليق بموظفٍ في الشركة، ثم أخبره بأن المبلغ سيقتطع من راتبه بعد مرور شهر على البدء بالعمل.

دخل أحمد إلى الشركة في اليوم التالي ببدلة رسمية وربطة عنق وحذاء جديد تماماً كما حدد له الموظف المسؤول عن البروتوكول، أو كما يقتضي نظام الشركة العام، واكتشف منذ اليوم الأول أنه لن يجلس على كرسي فاخر وأمامه طاولة كالموظفين الآخرين، كما أنه لن ينعم بدفء المكتب شتاءً ولن يتلذذ ببرودته المنعشة صيفاً، عمله مختلف تماماً، إذ علم من موظف مخضرم أن عليه أن ينسى أنه إنسان، ورأى أحمد الموظف وهو يرفع يديه في فضاء المكتب ويقول: ستكون يا بني حمامة، ومد يده إلى ظهره، وحماراً عند الضرورة، و دفن الموظف رأسه في درج المكتب وأخرجه، ونعامة إذا تطلب الأمر، تدفن رأسها في أقرب حفرة، باختصار عليك أن تكون أعمى وأخرس وأطرش.

لم يعترض أحمد على تعليمات مديره أو المسؤول عنه، وصار حمامة وحماراً ونعامة، واكتشف أنه لكي

يكون منتجاً عليه أن يكون بلا عينين وأذنين ولسان، وبعد فترة لاحظت الأم أن وحيدها صار يرفرف بيديه في الغرفة وأثناء خروجه إلى العمل سمعته يهدل كالحمام، ثم يركع على ساقيه وينقر الحب ويبحث في التربة الرطبة عن الديدان وأحياناً ينبش في الأرض بأظافره ويضع رأسه في الحفرة، لكن أكثر ما أزعجها تقليده لنهيق الحمار حيث كان يمنعها أحياناً من النوم، وأحياناً كان يضع على ظهره سريره ويدور في أنحاء البيت الصغير ويصعد إلى السطح ثم يعود إلى الغرفة وينام.

وذات يوم أراد أحمد أن يذهب إلى عمله سيراً على قدميه واختار شارعاً تعج محلاته بالمرايا المصقولة وأحب أن يرى بدلته الرسمية وربطة عنقه وحذاءه اللامع، فوقف أمام مرآة طويلة ونظيفة فلم ير شيئاً، تذكر أنه أعمى، فتخيل نفسه في المرآة حماراً بجناحين يحمل ما يفوق طاقته ويضع رأسه في حفرة عميقة، ولم يكن هذا التخيل ليزعجه لأنه ببساطة تخيل جميع الناس على شاكلته.

مقطع فيديو

تحـررت فاطمـة مـن سـطوة المـرآة بعـد أن كـسرت نـصفها إثـر رحيل سـعيد. وحين وجدت نفسها أمام ما تبقى منها قدرت أن يكـون هنـاك سـبب لوجودها في مكان لم تعـد تـشعر بجاذبيـته حتـى غـدا عـندها منـسياً، وكـانـت سـتلعن الذاكـرة الـتي بـدأت تخـونها وتـبحث عـن سـبب وقـوفها أمام نصف المرآة الباقي لو لم تجد فيه امرأة ابيضّ أكـثر مـن نـصف شـعرهـا وغـزت التجاعيد الخفيفة القسم الوحشـي من عينيها.

أهـذه أنـا؟ تسـاءلت فاطمـة بنـبرة مـن تفاجـأت بمـا آلت إليه حالها لدرجـة شـبهت نفـسها معهـا بامـرأة المـرآة، بعـد ذلـك ارتمت على كـرسـي الخيـزران القديم وراحت تتفحص

وجهها وعنقها بهدوء. وبصوت مسموع تساءلت إن كان الزمن والترمل المبكر وراء تلك التغيرات! أم تراه الإغراق في الأمومة؟ ولكن ، هل وصل ابنها الوحيد إلى العاصمة؟

نظرت فاطمة إلى الساعة المعلقة على جدار غرفة الجلوس وكانت حينئذٍ تشير إلى التاسعة صباحاً وهذا يعني أن لديه ساعة متبقية كي يصل إلى جامعته. وريثما يصل وحيدها ويأتيها صوته يطمئنها بوصوله سالماً ، عادت تتفحص وجهَها وتحصي التغيرات الجديدة مثنية في الوقت ذاته على حبيبٍ ينهل من فيض أمومتها ولا يهتم لابيضاض شعرها وترهل عنقها وتجاعيد الجزء الوحشي المحيط بعينيها ، بعد ذلك ابتسمت وراحت تستعيد صباها فرأت في نصف المرآة فتاة متوسطة القامة مشدودة الخدين ينثال شعرها الكستنائي حتى خصرها النحيل ورأت سعيد ، عشيقها الأول ثم زوجها إلى جانبها ببزته العسكرية المموهة يحملها ليلة زفافهما محتفياً بحصوله على فتاة حياته ليعود إليها بعد أربعة أشهر محمولاً في تابوت وملفوفاً بعلم الوطن الملون. وبعد أيام قليلة من رحيله شعرت فاطمة بسعيد يعود إليها في حالة دعمصية تشكلت في رحمها ثم تمايزت وخرج منها قلباً يرجوها ألا تنساه

فتعاهده على الوفاء مدى الحياة ، وبعد أربعة أشهرٍ أخرى يصبح سعيد جنيناً كاملاً يخرج بعد تسعة أشهر إلى الحياة رضيعاً فتقرر فاطمة أن تفي بوعدها وتسميه كنان كما اتفقا يوماً أن يسميا مولودهما الأول ، لكن والدة سعيد حلمت بأن الطفل هو ذاته سعيد لكنه عاد خمسة وعشرين عاماً إلى الوراء، وكان حمو فاطمة رجلاً متديناً أراد للطفل اليتيم عمراً طويلاً خالياً من الأمراض المميتة والحوادث القاتلة فمنحه اسم يحيى، وأثلجت الأمنية صدر فاطمة وفي الوقت ذاته أسعدت قلب أم زوجها الراحل فتخلت الأولى عن عهدها وتنازلت الثانية عن حلمها. ومع يحيى عاشت فاطمة قصة حبٍ طويلة تخللتها خصومات أم وابنها ومشاكسات حبيبين، وحين كان يفارقها لأوقاتٍ متقطعة لم يكن هنالك ما يجعلها تقلق لأن الاسم كان بمنزلة تعويذة حمت فاطمة من الخوف عليه، إذ كانت واثقة من أن لا شيء في العالم يمكن أن يجعلها تفقده كما فقدت سعيد أثناء أداء واجبه الوطني.

شردت فاطمة في نصف المرآة الباقي تستعيد طفولة يحيى، رأته على زجاجها المصقول طفلاً يناغي بفرح ثم يحبو برغبة ونظرت إليه بأمل كبير وهو يجدف بذراعيه

وكأنـه يـريد أن يطـير إلى فـضاء لم يـرف فـيه جـناح، وابتسمت حين رأتـه يقف على قدميه ليبدأ خطواته الأولى سيراً يوصله إليها، فتحت فاطمة ذراعيها لتحتضنه فتعثر بطـرف البـساط ثـم وقـف ليعـيد محاولـة الوصـول إلـيها. وهاهـو يمـشي بخـوف ونظـراته مـصوبة إلى حبيبـته الفتـية دون أن يعــير العوائــق البــسيطة الــتي تعــترض قدمــيه الـصغيرتين أي اهـتمام، فـتحت فاطمـة ذراعـيها لتـستقبل وحيدها ثـم أعادتهما إلى مكانهما، وذلـك حين تذكرت أن طفلـها أصـبح رجـلاً كـاملاً ورث عـن معـشوقها الأول جـسداً قـوياً وقامـة طـويلة، كـبر يحيـى كـشجرة زيـتون زرعهـا سـعيد قـبل رحيله أمـام المنـزل الـصغير. رأتـه فاطمـة على صفحة نصف المرآة المصقول بمريوله البني يخرج من البيت باتجـاه مدرسـة القـرية ولم تقلـق عليه في ذلـك الـيوم كمـا يحـدث لمعظـم الأمهـات لأن الاسـم تعـويذة لا تخـيب أبداً، كمـا أكـد والد سعيد. بعد ذلك رأته فاطمة يرتدي بذلـة الخاكـي المدرسـية ويخـرج مـن البـيت باتجـاه مدرسـة المدينـة الثانوية، ولم يعتريهـا القلق لأن الاسـم تعويذة كما أكـد والـد سعيد تجعل كل من يفكـر بإيذائه يرتعد عند البـدء بتنفيذ الفكـرة، ولذلك كـان يحيى يعود دائماً سالماً

لم يجرح أو يخدش، غانماً درجات نجاحٍ عالية وعبارات إطراء من المدير والمدرسين على تفوقه الدائم. فتقول له فاطمة وهي تتفحص حصاده الوفير: كم كان والدك سعيد سيفرح لو ظل على قيد الحياة ورأى ما أراه الآن وتضيف: لولا تلك الرصاصة الغادرة لكان لسعيد من اسمه نصيب. سخرت فاطمة من جارة لها سألتها إن كانت تشعر بالقلق على وحيدها الذي يدرس طبيباً في جامعة العاصمة. فأجابتها فاطمة بسؤال عما إذا كانت تجهل أن اسم يحيى تعويذة تحمي صاحبها من الأخطار المحدقة والموت المبكر، ثم ذكرتها أن عمر يحيى لم يتجاوز بعد تسعة عشر ربيعاً ، وأضافت بثقة امرأة تناغمت قناعاتها مع مقولات مسلم بها: لن يصاب ولو بجرح بسيط ولن يرمق ولو بنظرة حسد واحدة وسيعيش أكثر من جده الثمانيني. عادت فاطمة تنظر إلى الساعة الجدارية وتنبهت إلى أنها اقتربت من العاشرة صباحاً، عند ذلك قدرت أن يهتف لها يحيى بعد ما يقارب عشر دقائق من جواله ليعلمها بخبر وصوله إلى حرم الجامعة، وعلى الرغم من أنها لم تكن تحتاج لخبره هذا لكنها تلح عليه بقولها: فقط ليطمئن قلبي. استعذبت فاطمة الجلوس أمام نصف

المـرأة الـتي خـيل إلـيها أنـه سـجل علـى زجاجـه المـصقول شـذرات جميلة مـن حياتها و رأت فيه يحيى يهيِّئ نفسه من أجـل أن يـذهب إلى الجامعـة، رأتـه يـرتدى ثـياباً جديـدة ويـسرح شـعره ويـشذب لحيـته وحـين رأت وحـيدها بـتمام أناقته وكامل رجولته شعرت بالرضا ، وعلمت حينئذٍ أنها قامت بمهمتها على أكمل وجه وحين شمت رائحة العطر التي كان يرشها على خديه الممتلئين فاستنشقت رائحة عطـرين، رائحـة تعـرفها ورائحـة تعـرفت علـيها، عـندها احتضنته وتمنت لو أنها تتلاشى به وتذوب، بعد ذلك أفلتته مـستجيبة بـذلك لحـركة قـام بهـا وقـال لهـا معـتذراً بأنـه سـيتركها الآن كـي لا تفـوته حافلـة القـرية الـصباحية، نظـرت إليه فاطمـة ورأتـه وهـو يبتعد ويختفـي وراء أغصان الزيتون المصطفة على الطريق، ورأت نفسها تركض وراءه وتناديه حتى إذا التقطت أذناه صوتها عاد إليها فطلبت منه ألا ينشغل بطالبات الجامعة، وهـز رأسـه مـؤكداً لهـا أنـه يذهب إلى الجامعة بهدف الدراسـة ولا شـيء آخر، كـان عقرب الدقائق قد لامس العاشـرة تماماً فانتابها شعور أم تتلهف لسماع صوت وحيدها، ولكي تسمع صوت النغمة الخاصـة بـه أحـضرت هاتفهـا الـنقال مـن غـرفة الجلـوس

ووضعته أمامها مفضلة النظر إلى شاشته المظلمة على مراقبة ما يحدث على زجاج المرآة المصقول، وبعد مرور أكثر من خمس دقائق من الصمت انتابها خوف من أن يكون هناك فتاة في حياته، وما زاد في خوفها ثرثرات لطالما سمعتها تتحدث عن طالبات الجامعة وسلوكهن الذي لا ينسجم مع تربيتها الصارمة والمثالية، وقدرت أن يكنّ الآن يسخرن منه لأنه يبدي اهتماماً شديداً بها وربما اتهمته إحداهن بالتبعية وضعف الشخصية و... كلا ، صاحت فاطمة مستبعدة تأثير أي فتاة على ابنها وقدرت أنه يستطيع بذكائه الفكاك منهن للحظات كي يتحدث إليها، وأضافت مشككة: إلا إذا كان قد وقع بين يدي فتاة لعوب تنسيه أمه وأباه وجديه و ضيعته الصغيرة، بعد ذلك تذكرت ثرثرات جاراتها حول الرجال من أنهم يخونون عند أول فرصة متاحة، وخيل إليها أنها تسمع قهقاتهن الساخرة يقلن خلالها من إنه سينساها حين يشم رائحة أول فتاة تضحك له أو ترفع له يدها، وهذا ما جعلها تغضب فتضغط على زر الاتصال ويأتيها صوت بليد لطالما كرهته يقول معتذراً: لا يمكنك الاتصال الآن قد يكون الجهاز مغلقاً أو خارج نطاق التغطية. عاودت الاتصال مرة

أخرى فالتقطت أذناها الصوت البليد ذاته وبدأت تشعر أن ثمة جداراً عالياً يحجبها عن طفلها الجميل ويمنعها حتى من التلصص عليه. لماذا يغلق هاتفه النقال في وقت أحوج ما تكون فيها إلى رنته الحبيبة ؟. عادت فاطمة تطمئن نفسها حين استعادت تأثير الاسم التعويذة على وحيدها وتذكرت كيف أنه حماه زمناً يقارب العقدين من كل أنواع البلاء والشرور. ترى هل الاسم التعويذة أضعف من أن يحمي وحيدها من فتاة لعوب؟ كانت فاطمة ستطرح الكثير من الأسئلة حول فتاة مفترضة أخذت فلذة كبدها منها وجعلته يغلق هاتفه النقال وينساها لو لم يرسل الهاتف الرنة المخصصة للرسالة. فتحتها على عجل واكتشفت أنها مقطع فيديو، وبالتالي لم يكن ثمة حاجة إلى قراءة رسالة اعتذار من حبيبٍ ضن عليها بكلمة مطمئنة بل عليها أن تستمع إلى قهقهات النصر وعبارات التكبير والتهليل التي تتزامن مع تأوهات الألم وحشرجات الأنين. وفي الوقت ذاته كان عليها النظر بتركيز شديد في الصور المرعبة التي تتوالى بسرعة شديدة على الشاشة الصغيرة حتى خيل إليها أن الدم الذي يفور من الأعضاء المقطعة سيضغط على شاشة الجوال فتنفجر ويتناثر على

الجدران والسرير ولن يستثني الخزانة والستائر، أبعدت نظراتها عن الشاشة وعادت إلى الزجاج المصقول لتتأكد من صحة ما رأت على الشاشة الشيطانية على اعتبار أن نصف المرآة في ذلك اليوم جعلها ترى كل ما يسعدها والنصف المفقود ذكرها برصاصة الغدرالتي أودت بحياة سعيد.

لا أحد يعلم السبب الذي جعل فاطمة تكسر النصف الباقي من المرآة ولو كانوا معها في الغرفة لقالوا إنه خداع النظر. إذ إن الصورة كما يقال تحتاج إلى بضع ثوانٍ لتتحرر من الحدقتين. لكن شناعة مارأته فاطمة على شاشة الجوال جعل الصور تنطبع في بؤبؤي العينين وتترسخ في الذاكرة، وهذا ما جعلها ترى على الزجاج المصقول ما رأته على شاشة الجوال وهو عبارة عن أعضاء يحيى المقطعة ودماءه النازفة. ورأت فاطمة أن كسر الزجاج المتبقي سيجعل وحيدها بين يديها فتعيد رأسه إلى كتفيه وتضع قلبه في الجهة اليسرى من جسده وكبده في الجهة اليمنى ثم تخيط يديه في مكانهما وهكذا حتى إذا انتهت من وصل بعض الأعضاء وإعادة الباقي منها إلى مكانه وقف على قدميه وذهب إلى الجامعة يكمل دراسة

الطب البشري، باختصار كانت فاطمة متأكدة أن يحيى المقطع ليس ميتاً لأن الاسم تعويذة تحميه من جميع الأخطار ومن كل أنواع الحسد وكذلك ستبعد عنه شيطنة فتيات الجامعة اللعوبات.

حداء ومواء

اعتادَ سكانُ قريةِ الشِّير في بعض أيام الخريفِ الماطرة على سماعِ نغمةِ حداءِ ملهب تنسابُ في الفضاءِ الرمادي، وتتسللُ عبرَ فتحاتِ النوافذِ والأبوابِ إلى البيوتِ، فيدفعُ الفضولُ أصحابَها للخروجِ إلى المصاطبِ الطينيةِ لرؤيتهِ وهو يرقصُ على أطرافِ حقلِهِ المزروعِ بالصَّبّار ، وفي سرهم يحسدونهُ على امتلاكهِ موهبةَ الجرأةِ واستجابة جسدهِ لرغبتهِ في ممارسةِ طقوسهِ الاحتفاليةِ بقدومِ المطر، ومع مرورِ الأيام اكتشفوا أن الأرضَ التي يرقصُ ملهب على تربتها الرطبةِ تبدأُ بعد ساعاتٍ قليلةٍ بالاخضرارِ، وكان المسلم به أن أرضه تتحدد بألواح الصبار القاسية تزينها زهورٌ صفراءُ على

شكلِ أقداحٍ رقيقةِ الحوافِ، ولاحظ الجميع أن الصبارَ يزحف على الحقول المجاورةِ لأرض ملهب كلما تواصل حداؤه واستمر رقصه، وما كان ليعترضَ أحدٌ على هذا التمددِ الخضري الشائك، على الرغم من أنَّ البعضَ كان يرى في حداءِ ملهب ورقصِه نوعاً من المراوغةِ والاحتيالِ هدفه السطو على أراضيهم، ويحلفون كل مساء بأنهم سيقفون في صباحِ اليوم التالي في وجهِ ملهب المنافق وسيصمون آذانَهم عن سماعِ نغمةِ حدائهِ المخدرة ولن تسحرَهم ولا بأية حالٍ من الأحوال رقصاتُه البهلوانية ولا حركاتُ جسدِهِ المطواعة إذ يخيلُ إليهم أنهُ يطيرُ وهو يهزُّ جسدهُ لدرجة أن عيونَهم تعجزُ عن ملاحقتهِ، لكن أيمانهم الغليظة كانت تمحوها أحلامُ الليلِ الطويل وما تبقى منها يتطايرُ مع رياحِ الفجرِ المنعشةِ فيستسلمون لنغمةِ الحداءِ المكرورة ويندهشون من الأداءِ الرشيقِ للرقصات فلا يخطرُ في بالهم أن يتساءلوا عن سبب اختفاءِ أشجار السنديان والزيتون والليمون ولا يأبهون لمشاهدة رياحينهم وهي تتطاير في الهواء أثناءَ تأديتهِ تلك العروض المعتادة، وكان من المتوقع لقرية الشير أن تتحولُ إلى قريةٍ من صبار لولا ما حدثَ ذات صباحٍ خريفي ماطر، حين استيقظَ

سكانُ القريةِ على نغمة حداءِ ملهب ونظروا عبرَ نوافذِ بيوتهم الضيقة إلى رقصاتهِ البهلوانية فإذا بالصوت يتوقف، وظن البعضُ أن جسدَ ملهب اختفى بين خيوط المطر. فيما اعتقد الحالمون أن الراقص أراد أن يمارسَ موهبتهُ بين الغيوم الرمادية ليزرعها بالصبار فيما رأى آخرون أن توقفَ ملهب عن الرقص والحداءِ يعودُ إلى عدم رغبته في إضافةِ ألواحِ صبارٍ جديدةٍ إلى حقولهِ الواسعةِ، وحين سمعوا صوت احتجاج ينبعث من حنجرةِ امرأةٍ علموا أن رقصةَ ملهب الخريفية التي بدأت مع خيوطِ المطر الأولى توقفت قبل انقطاعها فوق أرض عليا، وهذه العجوزُ كما يعلم الجميعُ تعاني من صمم الشيخوخة لكنها ترى ما يعجزُ الآخرون عن رؤيته كما أنها وبحكمِ كونها مسنة، حريصةٌ على أرضها وتقولُ ما تريد بشأن ما تراه أو تفكر به، وتؤمن بضرورةِ الحديثِ عنه فالعجائزُ والشيوخُ وإن تشابهوا مع الأطفال في قول ما يريدون دون خوفٍ أو تردد إلا أنهم يخضعون جرأتهم هذه لميزانِ المصالح الشخصية والمنافع المادية ، ويرى البعضُ في سلوكهم هذا دليلاً على حالةِ خرفٍ تصيبُ من يدخلون مرحلة أرذل العمر، وفيما يخصُّ رقص ملهب فهي تدعي أن ما يقدمه

ليس رقصاً ، وأن قدميهِ غير مباركتين وليس صحيحاً ما يظنه البعضُ من أنهما تنشران الخضرةَ على الأرض التي يرقصُ عليها، ولو كانتا كذلك لنشرتا الخضرةَ في ساحة القرية أثناء رقصه في الأعراس والحفلات، وأعلنت بصوتها المتقطع أنها كل صباح تراقب ملهب من مصطبتِها الطينية وتراه يقطع الأشجار بمنشاره الكهربائي ويحفرُ بعقب قدمه اليمنى حفرة صغيرة ثم ينحني برشاقة ويضع في قلبها لوح صبارٍ أخضر، بعد ذلك يملأ كفيهِ بالمطرِ المتساقط من الغيوم الداكنة ويسكبه على اللوحِ الشائكِ لينتقل بعدئذٍ إلى حفرة أخرى وهكذا إلى أن يهده التعب أو تتوقفَ السماءُ عن المطر عندئذٍ يجر نفسهُ إلى بيته، وبعد ساعات قليلة تبدأ ألواح الصبار بالنمو والتوالد بجنونٍ يشبهُ رقصَ ملهب المجنون، ويعلن في اليوم التالي أن أرضه هي كل المساحة التي يغطيها الصبار وتؤكد عليا أنها لن تسمحَ لمن أسمته الراقصَ المحتال بأن يسطو على أرضها ولو كلفها ذلك حياتها.

حبس أهالي القرية أنفاسهم بعض الوقت وهم يسمعون ما قالته عليا، وعلى الرغم من قناعتهم بأن ما

تقوله جريء ودقيق إلا أنهم اتفقوا فيما بعد على كرههم لعجوزٍ خرفت وتريد أن تحرمهم من التسلية التي كانت تضفيها على حياتهم رقصاتُ ملهب الجريئة وحداؤه التراثي، بل إن معظمهم تمنى موتها أو غيابها، ثم ردد آخرون: لتخرج من القرية إلى حيث يسكنُ أولادُها في المدينة. ويتساءلون عما إذا كانت تظنُ نفسها أنها عصية على الموت حين تتمسك بقطعةِ أرضٍ صغيرة وتمنع ملهب من أن يمارسَ عليها طقوسَهُ الخريفية المعتادة؟.

وبعد يوم واحد فقط من اعتراض عليا على رقص ملهب تحققتْ أمنيةُ أهل الشير بموتِ العجوزِ أو اختفائها، وقدروا أن يكون اللّهُ قد تعاطف مع ملهب واستجاب لدعائهم بعد أن سمعهم يثرثرون في مساءاتهم عن الكهلِ المظلوم وخبث العجوز أو خرفها وتمنيهم موتها أو اختفاءها، ليس فقط من القرية بل كذلك من بيتها الطيني، و فيما يتعلقُ بسببِ اختفائها وبمكانِ وجودِها في حال بقائها حية فإن أحداً لم يكلف نفسه عناء السؤالِ أو البحث وبعضهم قدر أن تكون قد رحلت إلى المدينة لتقضي ما بقي لها من حياةٍ بين أولادها، فيما قال آخرون:

لتمت، لتختفي، ما الفرق؟ فهاهو ملهب يعود إلى حدائه ورقصه، لكن، فوجيء الجميع بأن حداء ملهب صار صاخباً ومتقطعاً وبالتالي بات يفتقد اللحن المتزن الشجي، كما إن رقصه فقد بعضاً من رشاقته وازداد فوضوية عدا أنه غدا بعيداً عن الحيوية وأقرب ما يكون إلى البلادة وادّعى فارس وهو مالك أرضٍ مجاورة لحقول الصبار أن ساقي ملهب تغوصان أثناء رقصه في التراب كما أن ذراعيه فقدتا القدرة على التجديف باتجاه الغيوم الرمادية.

لعن الجميع عليا الجشعة التي أربكت ملهب العجيب فصار حداؤه يشبه نعيق أبواق السلاطين أما رقصُهُ فما أشبهه بحركاتٍ بهلوانية تثير المللَ وتربكُ النفس الشاعرة، وحاله في أعراسهم وحفلاتهم لا تختلف عن حاله في طقسه الخريفي المعتاد، ولذلك قرروا أن يسكتوه ويوقفوه عن الرقص فانقضوا عليه وأبعدوه عما تبقى من حقولهم المزروعة بالأشجار والرياحين، وسمع أهالي الشير بعد توقف ملهب عن الرقص والحداء صوتاً يشبه الأنين، تجاهلوه في البداية ظناً منهم أنه صدى لحداء ملهب إلا أن الأنين ازداد حضوراً في فضاء القرية وصار يؤرقهم فراحوا

يبحثون عن مصدره وبعد ساعات قليلة من البحث اكتشفوا أن الأنين يأتيهم من بئرٍ جفت ماؤها منذ ما يقارب العقد فقرروا التخلص من الأنين بردم البئر، وحين اجتمعوا عند حافتها نظروا إلى فضائها الرمادي، فرأوا شيئاً أبيض يقفز إلى أعلى ويسقط في القعر، فقرروا عندئذٍ تأجيل ردم البئر لمعرفة ما إذا كان ذلك الشيء الأبيض وراء الأنين الذي كان متخفياً وراء حداء ملهب الصاخب، نزل أحدهم بوساطة حبل إلى قعر البئر فرأى كيس خيش متماسك الخيوط ، وعلى الرغم من الرائحة الكريهة فقد قرر معرفة ما يوجد في داخله وبعد خمس دقائق، صاح ملء صوته يخبر الواقفين على حافة البئر بأنه وجد جسد عليا الضئيل، أما ذلك الشيء الأبيض الذي كان يقفز في البئر فهو قطتها البيضاء، عندئذٍ علم أهالي القرية أن ملهب وراء ذلك الصوت الذي شبِّه إليهم بصوت أنين فيما هو مواء القطة التي فضلت البقاء مع مطعمتها حيثما ذهبت، إلا أنها هذه المرة أخطأت، وذلك حين رأت ملهب يدخل على رؤوس أصابعه إلى كوخ عليا وهي تتناول العشاء وترمي لرفيقتها بالفتات، يمد أصابعه الطويلة إلى عنق العجوز المجعد، يخنقها ويطلب من القطة أن تأكل

ما تبقى من الطعام لأنها لن تجد بعد اليوم من يطعمها الفتات النظيف، لكن القطة وأثناء غفوة استسلم لها ملهب بانتظار خلو الزواريب من المارة، قررت بعد أن نظفت الصحون من الطعام، أن ترافق مطعمتها إلى مطبخها الجديد، فاندست في كيس الخيش، شجعها على ذلك الموت النظيف الذي اختاره ملهب الساحر لضحيته العجوز، لأنه لا يحب منظر الدم وهو يفور من جسد الضحية ويملأ أرض الغرفة، خاصة وأنه يدرك صعوبة تنظيف الأرض الطينية من الدم، وهاهو بعد انتصاف الليل يحمل الكيس ويرميه في البئر الجافة ويردد عبارة يحبها ولم تسعفه ذاكرته في معرفة مصدرها، وقدر أن تكون إما من ورقة صفراء كانت قد وقعت بين يديه أوأنه سمعها من أحد شيوخه المبجلين. ولذلك فإن عبارة ملهب المأثورة (سيكون موت عليا العجوز في بيتها الطيني يشبه إلى حدٍ كبير موت معزاة عجوز في زريبة مهجورة) كانت تناسب مشروعه كثيراً لولا أن مواء تلك القطة الجائعة صار يمنعه من الانسجام مع نغمة الحداء المعتادة، وفي الوقت ذاته يربك أطرافه وكامل أعضاء جسده.

أما مشروعه الذي لم يكتمل فذهب أدراج الرياح وكأن قرية الشير كانت تحتاج لشيئين لتتغير أولهما حداء ملهب ورقصه وثانيهما موت عليا ، إلا أن اللافت أن سكان القرية حين قرروا تغيير اسم قريتهم إيذاناً ببدء مرحلة جديدة اختاروا لها اسم (جب عليا). على أن البعض تساءل إن كان صمت العجوز في البداية هو الذي تسبب في موتها وهل كانت ستموت لو أنها سمعت نغمات الحداء المكرورة أو احتجت على رقصات ملهب الأولى.

المحتوى

امرأة النار..5
حلم 13
المقنّع..19
طموح 33
المصادفة الهاربة 43
ذاكرة ثدي..51
السيد قاف 59
حلم بعد منتصف الليل 67
حكاية سعيدة 73
حاصد الخطيئة 83
المشطور 99
المباركة...111
اللوحة الأخيرة 119
العراب المخضرم...127
السلم المقلوب...135
الذراع المباركة 143

الثورجي... 153
أحلام درويش 163
فتى من هذا الزمان... 173
مقطع فيديو.. 179
حداء ومواء.. 189

صدر للمؤلف:

- طريق العودة، رواية.
- العرموط، رواية.
- ثم اعترفت، مجموعة قصصية.
- رجل الرغبة الأخيرة، مجموعة قصصية.
- رجل لكل الأزمنة، رواية.
- جنة عدن، رواية.
- ريح شرقية، رواية.